الشيخ عبد الكريم آل شمس الدين

الحكمة الإسلامية

بحوث من مقتضيات العصر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الحكمة الإسلامية

بحوث من مقتضيات العصر

الفصل الأول : التأويل : كشوف معاصرة في كتاب الله العظيم 1423 هـ 2002 م .

الفصل الثاني : الحمل الإصطناعي بين الحضارة والشريعة .

الفصل الثالث : الشذوذ الجنسي بين الفرضيات والمفهوم الديني .

الفصل الرابع : نحن وحضارة العام ألفين .. إلى أين ؟ ! ...

الفصل الخامس: الحب الإباحي .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله وحده
الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ،
الحمد لله حمداً خالداً بخلوده ، وصلى الله على الذين اتبعوا الله حق اتباعه ، من محمد (ص) خاتم النبيين إلى آل بيته الطيبين الأبرار ، إلى صحبه أنصار الله ، إلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم يبعثون . وبعد ,

غاية واحدة ، استهدفتها مفردة ، عندما شرعت في كتابة هذه البحوث كما سابقاتها بفضل من الله فيما كتبت ونشرت ، وكما لاحقاتها ، إن شاء الحبيب الأعظم ، ربي ، عليه توكلت ، وإليه وحده لجأت بعقلي ونفسي وبدني ، وكل كياني ، وإليه أنبت وإليه المصير .

هذه الغاية هي دعوة الأمة إلى الله ، ﷻ .

فإذا استفاقت الأمة بقادتها ، وعزّت بعد ذلِّها ، غفر لها بعد سخطه العزيز الغفار ، ووجدت نفسها هي تدعو كذلك إلى الله .

فإذا فعلت وصدقت ، استجابت لها بقية الأمم ، ناجية من دمدمة ترصد بالغضب والمحق ، جنون أهل هذا الكوكب وعربدة مترفيه .

وأصبح المجتمع البشري مجتمعاً أخوياً واحداً مؤمناً . وأحب أهل المشرق أهل المغرب . أهي دعوة أفلاطونية أم

شيوعية فاشلة أخرى ، أم أحلام شاعر ؟ لا ليس الأمر كذلك . إنما هو أمر عملي جاهز ناجز . يكفي لكي يغدو حضارة مباركة على الأرض ، شرط واحد عالمي بسيط : اليقين بحاكمية الله الذي لا إلـه إلا هو .

فالدستور الإلـهي العالمي الذي هو القرآن المصدق للتوراة والإنجيل والمهيمن عليهما بقرار من الله العظيم ، لم يطبق بعد ولا مرَّة في التاريخ ، إلا بضع سنوات محت معالمها الردَّات الجاهلية بزوابع النفاق وأعاصير الكفر والزندقة من تحت عمائم الخلفاء والمتكالبين على الدنيا من أتباعهم .

إذن لم يتح للدستور الإلـهي بعد أن يطبق .

والقرآن ليس للعرب ، ولا لأيِّ عرق من أعراق أهل الأرض .

الدستور الإلـهي الذي هو القرآن المجيد ، هو لجميع أهل الأرض بجميع أجناسهم وألوانهم ولغاتهم . وهو كذلك لجميع ما تحت السماء الدنيا بما في ذلك الكواكب وسكانها .

زَعْمُ التوراة كتاباً إلـهياً بعد السبي البابلي زَعْمٌ كاذب .

وَزَعْمُ إنجيل واحد ، تردُّه مزاعم ثلاثة أناجيل مختلفة في المقابل ، فأيها الإلـهي ؟ والرد واضح . إذن أراد الله سبحانه أن يكون له دستور واحد (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)، فعطَّل بإذنه التوراة ، حيث سمح بأن يداخلها ما هو غير إلـهي .

وعطَّل بإذنه الإنجيل ، حيث سمح بتعدده ، فمحال أن يقال عن أحدها أنه إلـهي خالص .

لا أريد أن أثير يهودياً واحداً ، ولا نصرانياً واحداً ، من منطلق دينونتي لله ودعوتي له سبحانه ، ناهيك بيهود الأرض ونصاراها . بالعكس ، أريد بهم خيراً ، ولو كانوا يريدون بنا كمسلمين شراً مستطيرا . وليس أعظم خيراً وصدق نصيحة وتحسساً بالإخاء الإنساني ، من أن أدعوهم إلى الله وكتابه ، لأني موقن بوحدانيته سبحانه وبحاكميته ، وبأنه ليس في الأرض كتاب إلـهي صرف غير هذا القرآن المجيد .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى وهي الأساس ، أريد أن أكون في طاعة ربِّيَ الله ، رب العالمين ، مستجيباً لإرادته ، موقناً أن من إراداته الدعوة إلى الحق والخير والروحانية ، ودعوة جميع العقلاء تحت السماء الدنيا ، ولا سيما أرضنا هذه ، التي أصبحت كريّة صغيرة ، كمدينة واحدة ، بفعل الدفع الإلـهي لتكنولوجيا التواصل ، وفتوحات العلم في شتى الحقول الإنسانية ، في الأنفس والآفاق .

من هذا المنطلق ، كتاب (الحكمة الإسلامية) هذا ببحوثه ومواضيعه ، التي جسست لها مواطن الداء في أمة الإسلام والمجتمع العالمي عامة ، وبفضل من الله سبحانه اهتديت إلى ما اهتديت إليه من مرض هنا ووجع هناك وآفة هنالك ، فأشرت إليها إشارة المحب الذي يعز عليه أن يشقى إخوته في الإنسانية دنيا وآخرة ، بينما في متناولهم ، وبقليل من التضحيات ، ويسير من الطاعات رضى الله ورضوانه وحبه ، يعني سعادة الدارين ، بدلاً من هذا الغرق في وحول الحضارة هذه الشقية اللاهثة ، التي يرقص أهلها سكارى على جثث الأطفال وأشلاء المعذبين ،

وكرامات الشعوب ، وأَحْكَمُ الحاكمين يغضـب من ذلك ، ويعذب عليه عذاب الأبدية .

فإن لم يكن رجوعك إلى الله حباً بالله فِعْلَ الأحرار الأبرار والشهداء الصديقين ، فرحمة بنفسك يا أخي الإنسان وحرصاً على خلاصها .

هذا ، والله ولي الأمر من قبل ومن بعد وعلى كل حال ، عليه توكلت وإليه أنبت وإليه المصير .

اللهم أنت ربي وأنت حبي وأنت حسبي ، بك وحدك أستعين وما توفيقي إلا بك يا ذا الجلال والإكرام .

لك الحمد ولك الشكر يا رباه يا حبيباه ، كما حمدت نفسك وكما شكرت نفسك وكما ينبغي لكرم وجهك .

عبد الكريم شمس الدين

عربصاليم - لبنان الجنوبي

الفصل الأول

التأويل

كشوف معاصرة في كتاب الله العظيم

1423 هـ – 2002 م .

معنى التأويل وكيفيته

إن كلمة (تأويل) ، قد علَّمنا الله تبارك وتعالى ، معانيها كفاية في كتابه الكريم . لذلك سنفهم (التأويل) إن شاء الله ، كما علمنا سبحانه في آياته البينات ، عارضين بحثنا هذا تحت ثلاثة عناوين :

أ) ـ تأويل الرُّؤَى في سورة يوسف (ع) .
ب) ـ تأويل الوقائع الأربع مع موسى وصاحبه (ع) .
ت) ـ معنى تأويل القرآن .

أ) تأويل الرُّؤى في سورة يوسف (ع)

في هذه السورة الكريمة ، نجد معنى كلمة (تأويل) التي وردت في هذه السورة ثماني مرات في ثماني آيات يكاد يكون محصوراً في تفسير الرؤى الأربع التي ورد ذكرها في السورة المباركة .

ومعلوم أن الرؤيا الأولى فيها وهي رؤيا يوسف عليه السلام :

{ يـٰـأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ والقَمَرَ رأيتُهُمْ لِي سـٰـاجِدِينَ } [1]

(1) سورة يوسف الآية 4 .

وقع تأويلها هكذا :

{ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وقَالَ يا أَبَتِ هـٰذا **تأْوِيلُ** رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبّي حَقّاً } [1]

.

ثم قوله تعالى : { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنّي أراني أَعْصِرُ خَمْراً وقال الآخر إِنّي أَراني أَحْمِلُ فَوقَ رأْسي خُبْزاً تَأكُلُ الطَّيرُ مِنْهُ نبِّئْنَا بِتأوِيلِهِ إِنَّـا نَرَاكَ مِنَ المُحْسنِين. قَالَ لا يَأتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأتُكُمَا بِتَأوِيلِهِ قَبْلَ أنْ يَأتِيكُمَا ذٰلكما مِمَّا عَلَّمَني رَبّي . إِنّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْم لا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كـٰفِرُونَ . واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَـٰـقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أنْ نُشْرِك باللهِ مِنْ شَيْءٍ ...}[2] .

فقوله : " لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ": معناه أنه لا يأتيكما في الرؤيا ، أو في خبر حول طعام ، قُدِّرَ لكما أن ترزقاه إلا نبأتكما بمعاني رموزه إذا كان في رؤيا ، أو أسبابه ومتعلقاته إذا كان في خبر ، وذلك قبل أن يتحقق الوجود المادي الحقيقي لهذا الطعام أو لما يَعْنيه .

وكلمة (تُرْزَقَانِه) تشير إلى عمق الحَدَثِ ، كلِّ حدث ،

---

(1) سورة يوسف الآية : 100 .
(2) سورة يوسف الآيات : 36 - 38 .

لأن الرزق أو أي أمر من الأمور ، حدث مخطط لـه في علم الله سبحانه مروراً بالمشيئة ثم التقدير وإلى هنا يبقى الحدث ضمن الصورة الرمزية (الرؤيا) أو ضمن الخبر (الكلمات)

فإذا وقع القضاء فيه أو عليه ، أصبح حقيقة وواقعاً ، وعند ذلك يتم تأويلُه .

ولهذا أردف مؤكداً على هذه المعاني بقوله : { إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ... واتبعت ملة آبائي ... **مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ)** والعبارة الأخيرة ، هي الهدف الذي رمى إليه ، وهي أن الله سبحانه " هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم [1] ".

وغير هذا الذي وفقنا الله إليه ، يبقى كل كلام حول تفسير هذه الآية دون طائل .

ثم أوَّلَ يوسف رؤيا كل واحد من صاحبيه :

{ يـٰـصَاحَبَيْ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً ، وأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رأسِهِ قُضِيَ الأمْرُ الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [2] .

ونقارن بين رؤيا يوسف عليه السلام وتأويلها :

---

(1) سورة الحديد الاية : 3 .
(2) سورة يوسف الآية : 41 .

الرؤيا : { .. إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰـجِدِينَ } .

وتأويلها : { فَلمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوىَ إليهِ أَبَوَيْهِ .. وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلى العَرشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يـٰأَبَتِ هَذَا تَأوِيلُ رُؤْيَـٰىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها ربِّي حَقّاً .. }

ونقارن بين رؤيا أحد صاحبيه وتأويلها :

الرؤيا : { إنِّي أرَٰنِىَ أعْصِرُ خَمْرًا } وتأويلها ، أنه { يَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا } وبين رؤيا الآخر وتأويلها :

{ إنّي أرَٰنِيَ أحْمِلُ فوْقَ رَأسِي خُبْزاً تَأكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ } . وتأويلها أنه { يُصْلبُ فتَأكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأسِهِ }.

والملاحظة السريعة هنا تكاد تقول ، أنه لا يوجد أي رابط بين رموز هذه الرؤى الثلاث وبين تحققاتها .

إلا أن المتعامل مع اللغة العربية بشكل خاص ، واللغة الكونية بشكل عام يجد الروابط التامة المقصودة ، إذا تعلم اللغة الكونية من جانب واللغة العربية بمجازاتها وحقائقها من جانب آخر.

وهنا نختصر موضوعنا كله في أمرين :

الأول : هو التشابه بين رموز الرُّؤَى وبين تَحَقُّقَاتِها .

الثاني : هو ردّ الصور الرمزية إلى أصولها ، أو ردّ المثاني إلى الأوائل ، وذلك معنى التأويل في اللغة وبالتالي معناه أو بعض معانيه ـ كما سنرى ـ في القرآن الكريم .

وهذه الآيات المتعلقات بالرؤى المذكورة ، هي من الآيات المتشابهات من وجه ، ومن المثاني من وجه آخر ، والتشابه فيها هو تشابه الرمز مع الواقع ، والمجاز مع الحقيقة ، أما أوائلها أو أصولها ، فهي حقائقها التي أوِّلت إلى وقائع محسوسة في عالم الحضور والزمان والمكان ، بعد أن كانت مشاريع مرموزة أو أخباراً في عالم الغيب والمشيئة [1] .

فمعاني (أوّل) و (تأوّل) و (التأويل) في قوامس اللغة كما يلي وباختصار : أَوَلَ : الأوْل : الرجوع . وأوَّلَ إليه الشيء: رجَّعه ـ وأوَّلَ الكلام وتأوَّلَهُ : دبَّرهُ وقدَّره وفسَّره . ـ والتأويل : عبارة الرؤيا .

تأويل الوقائع الأربع مع موسى وصاحبه (ع)

قصة رسول الله موسى عليه السلام مع صاحبه العالم ، هي من أبلغ القصص القرآني ومن أعمقه ، من حيث مفارقات

---

(1) بحيث أن الله عز وجل إذا أراد أمراً مؤجلاً ، يبقى هذا الأمر في علمه سبحانه ويكون هذا الأمر (أوَّلاً) من حيث ترتيب المراحل . ثم قد يرمز إليه برؤيا أو أكثر فيكون الرمز ثانيا أو من (المثاني) . فإذا أوّل الأمر إلى حقيقة بقي (أولا) من حيث الترتيب ، وكذلك بقي الرمز في (المثاني) .

ما بين ظواهر الأمور وبواطنها . وفي مقدماتها وأسبابها أن موسى عليه السلام سأل ربّه تبارك وتعالى بما معناه : (ربي ، هل في الأرض رجل أعلم مني) فأجابه الله سبحانه بالإيجاب وأرسله إلى هذا الرجل على عنوان مفتوح هو أحد السواحل البحرية ، عند (مجمع البحرين) ، والمرجَّع أنه في مكان ما من قناة السويس حالياً .

ولإمتاع العقل وتشريف النفس براوئع القصة ، نوردها كما وردت في القرآن الكريم ، لنجد أنها سهلة الفهم ميسورة المعاني ، يجد الإنسان المؤمن فيها لذة كما لذة حل الطلاسم والمسائل الكونية المبهمة وشبه المغلقة .

وهذه هي القصة كما جاءت بتسلسلها في القرآن الكريم :

{ وإذْ قَالَ مُوسىَ لِفَتـٰـهُ لاَ أبْرَحُ حَتَّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أوْ أمْضِيَ حُقُبَا . فَلَمَّا بَلَغَا مَجمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذّ سَبيلهُ في البَحْرِ سَرَبا . فَلَمَّا جَاوزَا قَالَ لِفَتـٰـهُ آتِنَا غَدَاءَنا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرنَا هـٰـذا نَصَبَا . قَالَ أرَأيتَ إذْ أوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أنسـٰـنِيهُ إلاَّ الشَّيطانُ أنْ أذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبيلَهُ في البَحْرِ عَجَبَا . قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارهِمَا قَصَصَا . فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَـٰـهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وعلّمْنَـٰـهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمَا. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أتَّبعُكَ عَلَى أنْ تُعَّلِمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدَا . قَالَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعي صَبْرَا . وَكَيْفَ تَصْبرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بهِ خُبْرَا . قَالَ سَتَجدُني إنْ شَاءَ اللهُ صَابراً وَلاَ أعْصي لَكَ أمْرا . قَالَ فإنْ اتَّبَعْتَني فَلاَ تَسْألْني عَنْ شَيءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرَا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إذَا رَكِبَا في السَفينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أخَرَقْتَهَا لِتُغْرقَ أهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إمْرَا . قَالَ ألَمْ أقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعيَ صَبْرَا . قَالَ لاَ تُؤَاخِذْني بمَا نَسيتُ ولاَ تُرْهِقْني مِنْ أمْري عُسْرَا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إذا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بغَيرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرَا . قَالَ ألَمْ أقُلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعيَ صَبْرَا . قَالَ إنْ سَألْتُكَ عَنْ شَيءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصـٰـحِبْني قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي

عُذْرَا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إذا أتَيَا أهْلَ قَرْيَةٍ استَطْعَمَا أهْلَهَا فَأبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ فَأقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيهِ أجْرَا . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ **بتَأويلِ** مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرَا [1] .

لقد رأينا كما هو واضح ، في سياق هذه القصة القرآنية ، أربعة مواقف يعجز عن حملها أهل الظاهر بشكل عام : الأول ، أن نبياً من أولي العزم ومن أعلى مستويات النبوة يُبعث به ليتعلم اختصاصاً غير اختصاصه ، من رجل مغمور لا يعرف المؤرخون إسماً له ، فيُدِلُّ بما علمه ربُّه ، مُحِقاً ، على هذا النبي الكريم . ويستجيب موسى (ع) لشروط أستاذه ، ويفرح لقبوله ، ويسعد بأن يكون له تابعاً طائعاً ، حتى ومعتذراً بعد كل صدمة .

أما الموقفان الثاني والثالث ، فهما في مستوى الجريمة النكراء ، يحكم على فاعلهما بالإعدام شرعاً وعقلاً .

---

(1) سورة الكهف الآيات : 60 - 78 .

أما الرابع ، فموقف حرج : إنسان جائع يستطعم أهل قرية فلا يطعمونه ، يلاحظ جداراً من جدرهم (يريد أن ينقض) على وشك أن ينهدم ، فينقضه ثم يعيد بناءه ، مع ما يقتضي ذلك من بذل الجهد ، ليس على شبع ، بل على جوع .

وكان من الطبيعي جداً ، لأي مؤمن يعاين هذه المواقف ، أن يتعامل مع كل موقف بما يناسبه من الأدب أو الغضب أو إسداء النصيحة . وكذلك كان يمكن أن يفعل موسى عليه السلام، وهو النبي ـ الإنسان ، الذي لم يكن من اختصاصه ـ أي أن الله

عز وجل ما قدَّر له ـ أن يعلم بواطن هذه الأمور. لولا أنه أخذت عليه العهود والمواثيق ، وحُذر من الإعتراض وذكِّر تكراراً ، ومع ذلك ، ما سلك موسى (ع) هذه المسالك ، إلا لشدة حرصه على طاعة ربه ، ولأن ظواهر الأمور كما بدت له فساد وإفساد ، فقد بدر منه ما بدر. حتى إذا قضى الله ما قضى ، وأدرك موسى سر هذا الإختصاص ، الذي لم يكن تعليماً عظيماً له وحده ، وإنما كان للبشرية جمعاء ، إستَغْفَرَ وشَكَر ، والله حليم كريم .

ثم يأتي (المعنى الثاني) للتأويل ، ليحسم هذه المواقف ، ومثيلاتها وتفريعاتها كلها في تاريخ الإيمان بوحدانية الله عز وجل وهيمنته وقيوميته وعلمه وأسمائه الحسنى فكان التأويل في كتاب الله تبارك وتعالى كما ورد على لسان صاحب موسى (ع) هو هذا :

{ أمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ في البَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وراءَهُمْ مَلِكٌ يَأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبَا . وَأمَّا الغُلَـٰـمُ فَكَانَ أبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْرا . فأرَدْنَا أنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَـواةً وأقْرَبَ رُحْمَا . وأمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ في المَدِينَةِ وكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وكَانَ أبوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُكَ أنْ يَبْلُغَا أشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أمْري ذَلِكَ **تَأويل** مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيهِ صَبْرَا}[1] .

هنا ، نجد في عرض القصة ، قبل تأويلها (بالمعنى الثاني للتأويل) ، أننا في مواجهة وقائع أو حوادث عجيبة أو خطيرة ، أو مفجعة ، أو غريبة أطوارها ، يدركها الإنسان بأحاسيسه ويقظته ، وينفعل معها ، إلا أنه لا يدرك الأسباب

والدوافع التي فرضتها فرضاً ، أو جعلتها قضاء منزلا . **فإذا تعامل معها الإنسان دون أن يفهم أسبابها ودوافعها والحكمة منها ، بقيت دون تأويل .** وفي ذلك الخسارة التي لا تُعوَّض وذلك شأن الجاهلين . **أما إذا أحاط الإنسان بموجباتها والحكمة منها ، فقد وقع تأويلُها .** وفي ذلك الهداية والتأييد من الله والفوز المبين . على أن كل ذلك إنما يقع بعلمه سبحانه ، ومشيئته ثم قضائِه . وهكذا فإن الإحاطة بالأسباب والدوافع والنتائج ، إنما تقتصر على الله عز وجل والراسخين في العلم . أي الذين اختصهم سبحانه بهذا الوجه وربما بغيره من وجوه الإختصاص ، ثم هم يظهرونها للناس بإذنه عز شأنه .

وهذا (المعنى الثاني للتأويل) يقرّبنا كثيراً ، من المعنى الثالث ، الذي هو (تأويل القرآن) كما سنرى إن شاء الله .

---

(1) سورة الكهف الآيات : 79 – 82 .

خطورة الحدث النافر إذا بقي دون تأويل :

أيما إنسان ، إذا ابتُلِيَ شخصياً ، بواحدة من مثل الوقائع المذكورة في هذه القصة (صحبة موسى للرجل العالم) : كتعطيل سفينة مائية أو فضائية أو سيارة أو أيَّة آلية . أو موت ولد عادي في الظاهر ، بلغ أو لم يبلغ رشده ، ذكراً كان أو أنثى ، أو رجل عالم من المشاهير ، أو يكون الأشهر في العالم تتناقل أخباره مؤسسات الإعلام والإتصال ، يؤمر أن يسافر من بلد إلى بلد ، متحملاً المشقات ، قاصداً إنساناً مغموراً ، لا يكاد يتوقف أحد عند مكانته الإجتماعية . ثم إن هذا الشهير ، الجدير شرعاً بالإجلال والإكبار والإحترام ، يتأدب مع الرجل المغمور راجياً

أن يصحبه ليتعلم منه ، فيقول الرجل المغمور لصاحب المنزلة العظمى عند الله :

" إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا " .

كذلك ما يشبه الجدار وبناءَه : رجل يعمل عملاً صالحاً مُكْلِفاً مع أناس سفهاء أشحاء ـ والشِحُّ هو بعد الكُفْر من أقبح الخصال ـ بعد إذ طلب منهم خدمةً بسيطةً ، بمقدار وجبة طعام ، فبخلوا ورفضوا أداء هذه الخدمة ، رغم اضطراره .

مثل هذه الأخبار ، لو أنها ذكرت في القرآن الكريم ، ولم يذكر تأويلها ، لصَدَمَنا القرآن صدمة هائلة ، ولظننا به الظنون .

ومثل هذه الأخبار ، لو لم تذكر في القرآن ، هي وتأويلها ، لبقي العلماء في مثل العمى ، في هذا الحقل من حقول الإختصاص ، وأمام حكمة مقفلة أبوابها ونوافذها .

ومثل هذه الأخبار ، إذا لم يستطع بعض الناس تأويلها ، يعني إدراك أسبابها والحكمة منها ، عن طريق العلماء ، لجنحوا وتهوّروا في سلوكهم الفكري ، وبالتالي الإعتقادي ، وبالتالي العملي ، مع النفس ووسوسات الشياطين ، إلى أسفل سافلين .

وكذلك القول في رموز رؤيا يوسف (ع) ، وبعده رؤيا عزيز مصر ، ومثله رؤيا إبراهيم (ع) . لو أن الله عز وجل ذكرها ولم يقيض لها بشراً راسخين في العلم ، يؤولونها بعلمه وبإذنه سبحانه ، لكان فيها الضلال المبين .

إذن ، التأويل واجب شرعي ، فريضة واجبة ، سواء كان المؤوِّل نبياً كيوسف (ع) ، أو عالماً كصاحب موسى . ونحن

أسميناه عالماً بالضرورة ، لقول الله تعالى فيه : { فَوَجدَدْنَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمَا . سورة الكهف الآية 65 } .

وهل كان هذا الرجل فريدَ عصره ؟ هذه قضية لا يجوز فيها الحسم . ولعل الحقيقة خلاف ذلك ، فالله سبحانه وتعالى قال :

{ وَللهِ جُنُودُ السَمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزيزاً حَكِيماً . سورة الفتح الآية 7 } .

لذلك وبثقة عالية ، واطمئنان كبير ، ندّعي أن ما قاله سبحانه عن صاحب موسى ، هو عينه يقوله عز شأنه ، عن عشرات ، بل ومئات من عباده ، ممن يؤتيهم رحمة من عنده ويعلمهم من لدنه علما ، وينشرهم في الأرض والأقوام ، على تعدد أجناسهم ولغاتهم ، وفي العصر الواحد والزمن الواحد . مع نسبة أعلميتهم . إذ لا بد بينهم من أعلم ، يكون موجهاً ، ومصححاً ، ومبلّغاً . وربما يكون مغموراً في مقابل المشاهير ، حتى يأذن الله تعالى بإظهاره ، وإظهار فضله سبحانه عليه . ومع ذلك ينسحب قوله تعالى على كل واحد من هؤلاء ، بمختلف درجاتهم ، إذا كان الله تعالى اختصه برحمة من عنده ، وبنوع اختصاص ، أو بأكثر ، من أنواع الإختصاص . سواء كان في العلوم الإلـٰهية الدينية ، وهي أشرف العلوم على الإطلاق ، أو كان في حقل من حقول الفكر ، أو المهن ، أو الصناعات المختلفة وعلومها التي تراوح بين الذرَّة والمجرة .

معنى (تأويل القرآن) :

بعد أن رأينا معنيين من المعاني الثلاثة ، لكلمة (تأويل) في القرآن الكريم ، وهما تأويل الرؤى[1] ، ارتكازاً على تفسير رموزها ، ثم تأويل الأحداث والوقائع ارتكازا على استنباط أسبابها وملاحظة نتائجها . فقد بقي علينا استكشاف المعنى الثالث القرآني ، وهو معنى (تأويل القرآن) ، وبذلك نكون قد استكملنا البحث حول ذلك المفتاح النير الكريم ، الذي يفتح مغاليق كثيرة ، دفعة واحدة في كتاب الله . ذلك المفتاح ، هو (معنى التأويل وكيفيته في القرآن) . هذا ، وإن من أصل الأصول العبادية ، معرفة أن كل ذلك واقع ضمن الهيمنة الإلـهية .

---

(1) جمع رؤيا وهي مما يراه النائم .

فما معنى (تأويل القرآن) ؟

قال تعالى في أول سورة الزخرف :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حم(*) وَٱلْكِتَـٰبِ المُبِينِ(*) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(*) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَـٰبِ لدَيْنَا لعَلِيٌّ حَكِيمٌ (*) .

فما قضية هذا (الجعل) في قوله تعالى : " إنا جعلناه قرآناً عربياً ؟ " إن كلمة (جعلناه) هي إشارة إلى (الكتـٰب المبين) في اللوح المحفوظ فوق عالم الناسوت وعالم الملكوت .

الدلالات القرآنية تفيد أن هذا (الكتـٰب المبين) بلغة كونية غير لغات أهل الأرض :

{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا في السَّمَاءِ والأَرضِ إنَّ ذلكَ في كِتَابٍ إنَّ ذلِكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ . سورة الحج الآية 70 } .

وفي معنى الجعل ، فإنه سبحانه قد يجعل الشيء العظيم بسيطاً ، والصعب سهلاً ، والبعيد قريباً ، وما فوق العقل يُعْقَلُ بعضه ، وقد يعكس هذه الأمور .. وبرحمة منه للعالمين . جعل (الكتاب المبين) والذي هو فوق مستوى الإنسان ومستوى عقله ، قرآناً ميسَّرا :

{ ولَقَدْ يَسَّرْنَا القُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر } .

وقال سبحانه وتعالى في الآية السابعة من سورة آل عمران :

{ هُوَ الذَّي أنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَـٰب مِنْهُ آيَـٰتٌ مُحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَـٰب وأُخَر مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأمَّا الّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ والرَّسِخونَ في العِلْمِ يَقولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَرُ إلاَّ أُولو الألْبَابِ } .

وقال سبحانه في سورة يونس الآيات 38 ـ 39 :

{ أمْ يَقولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأتُوا بسُورَةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا

بمَا لَمْ يُحِيطوا بعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأويلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الظَّـٰلِمِينَ }.

وقال عز شأنه في سورة الأعراف الآيات 52 ـ 53 :

{ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُمْ بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَى عِلْمٍ هُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ. هَلْ يَنْظُرونَ إلاَّ تَأْويلَهُ يَوْمَ يَأتِي تَأويلُهُ يَقولُ الذينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتَ رُسُلُ رَبّنَا بالحَقّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أو نُرَدّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِروا أنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرونَ } .

وهكذا نرى أنفسنا ، لكي نجيب على سؤال (ما معنى تأويل القرآن) ، في مواجهة هذه الآيات الكريمات ، التي ما زالت شغلاً شاغلاً ، لكثرة من المفكرين والعلماء منذ القرآن المجيد . ولكن يبدو بوضوح ، أن الله سبحانه وتعالى ، شاء لها أن يكون تفسيرها وحل رموزها ، أي تأويلها ، من حصة هذا العصر ، وعلى أيدي علماء ، ممن يجتبيهم الله ويتفضل عليهم من علماء هذا القرن الخامس عشر الهجري ـ العشرين الميلادي .

وحيث أن أَعْقَدَ المسائل هي في الآية السابعة من سورة آل عمران ، لذلك بعد التأمُّل فيها نستنتج :

أولاً : ما المقصود بـ (المُحْكَمِ) في القرآن الكريم ؟ علماً أن هذه اللفظة وردت فيه مرتين فقط ، مرة في هذه الآية الكريمة ، السابعة من سورة آل عمران . والثانية في قوله تعالى : {فإذَا أُنْزِلَـتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأيْتَ

الَّذينَ فـي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إليكَ .. سورة محمد آية 20 } .

ثانياً : ما (المتشابه) في القرآن الكريم ؟ وقد وردت هذه اللفظة بضع مرات فيه ، إلا أن المعنى الموافق لما في الآية السابعة من سورة آل عمران ، هو في قوله عز وجل :

{ اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحَديثِ كِتَاباً مُتَشَـابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الّذينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُـمْ ثُمَّ تَلِيـنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يَضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . سورة الزمر الآية 23 } .

فتتفرع عن هذه الآية ، ربطاً وثيقاً بكلمة (متشابهاً) كلمــة (مثاني) ، فنجد أنفسنا ملزمين بهما معاً إضافة إلى الآية السابعة من سورة آل عمران ، فَيَرِدُ عندنا ، وبالضرورة ، سؤال جديد ، هو :

ثالثاً : ما (المثاني) في القرآن الكريم ؟ وما معنى : { اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحَديثِ كِتَاباً مُتَشَـابِهاً مَثَانيَ } ؟ .

رابعاً : من هم الراسخون في العلم وما أدوارهم في (التأويل) منذ القرآن الكريم وإلى قيام الساعة ؟ .

خامساً : من هم الذين في قلوبهم زَيْغٌ ، الذين يتبعون مـا تشابه من الكتـاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ؟ .

ولكي نجيب على هذه الأسئلة كلها ، نلفت إلى أننا لم نعتمد فيها الترتيب كما أوردناها هنا ، وذلك لاضطرارنا للتعامل مع

آيات أُخَر ، ربطاً ومقارنةً واحتجاجا .. مما يقتضيه اسلوب الكتابة في نفس هذا الموضوع . وما توفيقي إلاّ بالله الحليم الكريم . بادئين بقول الله عز وجل لرسوله محمد (ص) :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مَنَ المَثَاني وَالقُرآنَ العَظيمَ }

فما (المثاني) بشكل عام ؟

... وأذِنَ الله بتأويل الأحرف النورانية :

قال عز وجل :

{ اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحَديثِ كِتاباً مُتَشَـابِهاً مَثانِيَ تَقشَعِرُ مِنْهُ جُلوُدُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلوُدُهُمْ وَقُلوُبُهُمْ إلىَ ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَىَ اللهِ يَهْدِي بهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فمَا لهُ مِنْ هَادٍ . سورة الزمرالآية 23 } .

وقبل أن نتشرف بأخذ ما يهمنا من هذه الآية الكريمة ، ينبغي أن نذكر في رأس هذا الموضوع ، تهديده ووعيده في قوله عز شأنه :

{ إنَّ الّذينَ يَكْتُمُونَ مَا أنْزَلْنَا مِنْ البَيّنَـاتِ والهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـاهُ للنَّاسِ في الكِتَـابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ . سورة البقرة الآية 159} .

من ما أنزل الله من البينات والهدى ، هذه الأحرف النورانية ، من مثل (كهيعص حمعسق) ، وقد بيّن بعض

وجوهـها للنـاس كما ذكرنا آنفاً ، تحت عنوان (وقفة قصيرة مع الكمبيوتر)[1] ، كما بيّن لنا سبحانه عن النبي (ص) وعن الأئمة الأطهار عليهم السلام أن (كهيعص وحمعسق) من أسمائه الحسنى ، لمّا أوصلوها إلينا في الرقى [2] بعد تلاوة الحمد

---

(1) انظر في كتابنا (العقل الإسلامي) تحت عنوان : (الأحرف النورانية وقفة مع الكمبيوتر .

(2) جمع رقية وهي التعويذة .

والإخلاص ، هكذا : كهيعص كفايتنا حمعسق حمايتنا وسيكفيكهم الله وهو السميع العليم [1] . وما أسرع ما يشفى من أثر ذلك الطفل البريء ، أو المؤمن الموقن المتوكل على الله .

لذلك تبين لنا أن الأحرف النورانية ، هي رموز مثان متشابهة مع أوائلها وأصولها الحقيقية ، وذلك كتشابه الرموز مع حقائقها الأرضية في الرؤى الأربع في سورة يوسف .

أو كتشابه الرموز الباطنية مع تأويلاتها الظاهرية في الوقائع الأربع في قصة موسى مع العالم (ع) .

وعلى هذا الأساس نرتب على المقارنة بين الأحرف النورانية والرؤى الأربع في سورة يوسف (ع) ثم الوقائع الأربع في قصة موسى مع العالم عليهما السلام ، ثلاث حالات :

الأولى : مع الأحرف النورانية : تشابه الرموز التي معنا في الأرض وهي مثانٍ ، مع حقائقها في اللوح المحفوظ ، وهي أصول أوليه .

(1) وسيكفيكهم ..... سورة البقرة الآية 137 .

الثانية : مع الرؤى الأربع : تشابه الرموز في عالم الملكوت[1] مع حقائقها في عالم الناسوت .

(1) **دراسة حول الرؤيا ، أو (ما يراه النائم)**

الرؤيا اثنتان : إما من الله سبحانه ، وإما من الشيطان لعنه الله .

أولاً : فَأما التي من الله تبارك وتعالى ، فتكون لعباده الذين يتولاهم ويتولونه فتقع في مصاديق قوله سبحانه : { هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِىءُ المُصَوِّرُ لهُ الأسْمَاءُ الحُسْنَىَ يُسَبِّحُ لهُ مَا فِي السَمَـٰوَاتِ والأرْضِ وَهُوَ العَزيزُ الحَكِيمُ . سورة الحشر الآيـة 24 } .

وعلى هذا الأساس تكون الرؤيا من منطلقين . منطلق عالم الملكوت ومنطلق عالم الناسوت أي الحياة الدنيا .

فإذا أراد سبحانه للرؤيا أن تكون صادقة قابلة التحقق ، أي التأويل ، أدخل روح صاحبها ونفسه عالم الملكوت فيرى ويسمع ويفهم ويتكلم بالمفاهيم واللغة الملكوتية ، فإذا خرج بشيء واضح متماسك منتظم من هذا العالم الملكوتي ، لزمه التأويل ، كل إلى لغته الناسوتية .

وتتعلق الرؤيا الملكوتية بالأحداث الكبرى ، فيما يختص بالفرد أو بالمجموع . من النوع الأول : رؤيا يوسف (ع) ومن الثاني رؤيا ملك مصر . (أنظر سورة يوسف) .

وأما إذا أراد سبحانـه لعبـده ، بشارةً أو إنذاراً أو توجيهـاً أو تحذيراً ، أو عقوبةً رادعة ، أو امتحاناً يسبر له فيه أغوار نفسه ويطلعه على مكامن الضعف والقوة فيها ، أو مرحلة الوصول صعوداً أو نزولاً ... إلى آخر ما يحتاج إليه عابد الله في عقله ونفسه وبدنه من تربية وتعليم وتهذيب وترقية ورفع درجات ، كذلك في أهله ومتعلقاته . فإنه

سبحانه وتبارك وتعالى يتفضل ويتكرم عليه خَلْقاً وَبَرْءاً وتصويراً بما يشاء له الحمد وحده .

ثانياً : وأما التي من الشيطان ، فليس هي باختيار الشيطان واستقلاليته ، ومعاذ الله أن يكون له ذلك وهو الضعيف الكيد . وإنما الله سبحانه يُوَظِّفُهُ لِقَلْقَلَة إنسانٍ ما وإزاغته (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم سورة الصف الآية 5) أو لإعانته علَّه يستفيق ويرجع إلى ربه الحليم الكريم ، أو يجعله له قريناً مؤقتاً ، حيث أنه إذا تاب يتوب الله عليه . وإما قريناً دائماً ، إذا كان من أهل الطغيان والبغي والعناد والضلالة . وذلك في قوله عز وجل :

{ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . سورة الزخرف الآية 36 } .

وفيما يخيّله الشيطان للإنسان أو يوسوس به ، أشياء وصور ومرهقات ، يستحيل تفسيرها أو تأويلها إلا في ضوء هذه الآية الكريمة ، التي فيها يجعل سبحانه الشيطان قريناً للإنسان عندما يعشو عن ذكر ربه تبارك وتعالى عما يشركون .

وحتى في هذا لا يكون الشيطان صاداً للإنسان عن الهداية والسداد والرشاد والرجوع أو اللجوء إلى ربه الكريم .

يقول سبحانه :

{ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُم مُجْرِمِيَن . سورة سبأ الآية 32 } .

ومن الذين استكبروا إبليس وقبيله ، يعرفون ويعترفون أن الإنسان الذي يصطادونه أو يجعلهم الله سبحانه له قرناء إنما كان مجرماً مستأهلاً لتسلط الشيطان عليه . على أن الحقيقة هي أن الله عز وجل يَرْكُمُ الخبيث على بعضه ، وهو كذلك يأمر الشيطان أن يشارك الإنسان في نفسه ومتعلقاته ، ما دام هذا الإنسان كالشيطان في سفالته وظلمه ، أو كبريائه وكفره ، أو حسده ولؤمه ، إلى آخر ما هنالك من صفات شيطانية يبغضها الله تبارك وتعالى . فيقيّض هؤلاء لهؤلاء طرداً وعكساً ، حيث أن لفظة ، الشيطان ، تشمل كذلك أنواعاً من الناس هم في كتاب الله وفي حكم الله شياطين ، قوله تعالى :

{ وكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِ نَبيٍ عَدُواً شَيَـٰطِينَ الجِنّ والإنْسِ يُوحي بَعْضُهُم لِبَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُروراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوه فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرون َ.سورة الأنعام الآية 112}.

وذلك في قوله تبارك وتعالى وجل وعز شأنه ، مخاطباً إبليس لعنه الله :

{ واسْتَفْزِزْ مَنْ استَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وأجْلِبْ عَلَيْهِمْ بخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ في الأمْوالِ والأولَـٰدِ وعِدْهُمْ ومَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَـٰنُ إلا غُرُوراً } . سورة الإسراء الآية 64 } .

موقف علم النفس من الرؤى في النوم :

الحقيقة أن علم النفس ، حتى السبعينات من هذا القرن كانت معظم مدارسه متفقة على أن الغرائز والإنفعالات هي التي تقود الإنسان . وقد قرر ذلك وبحماس شديد ، أكثر منظري علم النفس من هوبز (

HOBBES) (في الثلث الأول من القرن السابع عشر) الذي كان يزعم أن الخوف من الموت هو سيد الغرائز التي تقود الإنسان إلى مالتوس (MALTHUS) الذي زعم أنها غريزة الجوع .

وبعد هوبز بثلاثمائة عام ، يبدأ فرويد (FREUD) دراساته للإنسان مفترضاً أن لا وجود إلا للمادة وفي رأسها الدوافع الجنسية . ومهما يكن الأمر ، فإن النظرة السابقة لسبعينات هذا القرن ، والتي امتدت أكثرمن أربعمائة سنة ، كانت متشابهة في إنكارها للقيم الروحية والغيبية ، والتي نستطيع أن نقول وبدون أية مبالغة أنها طبعت حضارة أهل الأرض بشكل عميق ، ولا سيما الغرب (أوروبا وأمريكا) . وحتى الكثيرين من أهل الشرق الذين أخذتهم صرعات الثورة المادية بجميع أشكالها ، ما كان منها حقاً ، وهو قليل ، وما كان باطلاً وهو الطاغي على القيم الأصيلة والتعاليم الأخلاقية لجميع الأديان المنزلة .

ومع نهاية فرويد مصاباً بالسرطان في حلقه ، لم تنته الموجة التي شوهت الفكر الحضاري ، أفقياً وعمودياً . فقد ظهر في العشرينات من القرن العشرين ، تطور بلغ الدرجة القصوى من النظر السلبي لإنسانية الإنسان ، عنيت به المذهب السلوكي ، الذي كان مؤسسه وأبرز دعاته جون ب. واتسون (JOHN B. WATSON الذي حاز على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو عام 1903. والذي كان يضع نظرياته في علم النفس المتعلق بالإنسان ، من خلال تجارب واسعة النطاق يجريها مع الجرذان والعصافير والقرود . (أنظر عالم المعرفة رقم 134 - كتاب العلم في منظوره الجديد) .

وما دام الأمر كذلك في مزاعم هذه المدارس ، وخلال أكثر من أربعمائة عام ، فقد كانت الرؤيا في المنام ، خاضعة في فهمها إلى هذه المزاعم ، مما كان يخلخل الفكر والأخلاق ، ويجعل الإنسان يشك في نفسه وسلوكه وأخلاقه وجميع قيمه النبيلة .

ولكي نفهم الغرض من هذا العرض لمزاعم علم النفس العالمي اليوم ، ونظرته (للرؤى) في جملة مواضيعه ، فيكفي أن نشير ، إلى أنهم يفسرون كل رؤيا وكل رمز ، تفسيراً جنسياً ، حتى ربطاً وتشبيهاً بأعضاء يستقبح التصريح بها عند العقلاء والأخلاقيين (مدرسة فرويد)

أو تفسيراً ذاتياً مرتبطاً بحدود الإنسان وإفرازات مـا أسموه بالعقل الباطن ، تحت تأثير غرائزه وسلوكه الغريزي بشكل عام .

وفي ذلك كما هو واضح ، إنكار للقيم الروحية ، وإلغاء كلي لإنسانية الإنسان ، بدليل تركيزهم على دراسته نفسياً وسلوكياً ، تماماً كما تدرس حيوانات المختبرات من الجرذان والقرود . وينبغي هنا القول ، أنه ما زال يشاركهم في هذا الجانب من النظرة الحيوانية للإنسان ، بعض المتمسكين ، لتاريخه ، بمقولة أرسطو : الإنسان حيوان ناطق ...

وليس غريباً إذا أدت هذه الإنحرافات الفظيعة عن الحق والحقيقة ، إلى تمزيق نفسي واجتماعي لمرضى العيادات النفسية ، حيث جعلوهم يصنِّفون أنفسهم تصنيفاً بهيمياً ينتهي بهم إلى اليأس والقنوط من أن يحيوا حياة إنسانية ، مميزة بالعقل والقيم والمناقب ، والروحانيات والدين والأخلاق ، والحب الواعي ، والسعادة الحقيقية ، مما يستحيل على الحيوان أن يتوصل إلى أقل القليل منه ، ما دامت تقوده غرائزه التي خلقت فيه منظمة لحياته تنظيماً هو أقرب إلى نظام الآلة منه إلى إنسانية الإنسان ، الذي أكرمه الله سبحانه وسخر له ما في السماوات وما في الأرض تفضلاً منه وتكرماً .

الثالثة : مع قصة موسى مع العالم (ع) : تشابه الباطني وهو (مَثْنَى) مع الظاهري الأرضي كذلك ، وهو إرادة الله التي وقع عليها قضاؤه سبحانه وتعالى عما يشركون .

وقوله تعالى (من بعد ما بيَّناه) ، لا يعني كُلِّيةَ البيان ، بل يعني بعضه ، كما يعني أنه سبحانه إنما يريد بيان هذا الأمر بالتدريج وليس عند جهة واحدة [1] .

---

(1) المقصود ، تبيانه سبحانه للأحرف النورانية ، أنه ليس كليا ولا دفعيا ، وإنما هو كما نستكشف حسب الوقائع : معلومات أولية عن النبي (ص) والأئمة (ع) ، ثم إشارات في بعض الكتب الموثوقة ، وهي إشارات رقمية ضمن مربعات ، وضعت لتكون تعاويذ وتمائم لأهل الإيمان . كل مجموعة أرقام منها تبدأ بـ 18 وبعدها مباشرة وعلى موازاتها 19 ، ومعروف عند قلة نادرة من العلماء أن الرقم 18 يعني (أعوذ بالله من الشيطان) ومعروف عند أكثر العلماء أن الرقم 19 يعني (بسم الله الرحمـٰن الرحيم) أما بقية الأرقام بعد الـ 18 و الـ 19 وعلى موازاتها فلها علاقة بسور القرآن المجيد . وبعد هذه الإشارات تأتي حكاية الدكتور رشاد خليفة المبعوث لتمثيل مصر في الأمم المتحدة ، وما تعرض له أثناء ترجمة القرآن الكريم ، عند توقفه لترجمة أول سورة البقرة (بسم الله الرحمـٰن الرحيم ا لـم) وحيرته يومذاك ثم عرضه على الكمبيوتر هذه الحروف وشبيهاتها والسور المتعلقة بها ، وكونه حصل على معلومات مدهشة ومذهلة عن البناء الرقمي للقرآن الكريم نشر يومذاك في أكثر من صحيفة ومجلة على مستوى العالم الإسلامي.

وصحيح أن أكثر الأمور يبينها سبحانه للناس في الكتاب ، بشكل دفعي ، سواء في كتابه الذي هو القرآن المجيد أو كتابه الذي هو الكون ، أو في الإثنين معاً وكلاهما كتاب الله . إلا أن بعض الأمور الكبيرة ، بيَّنها سبحانه بشكل تدريجي . ومنها على سبيل المثال إبراز حق آل بيت النبي عليهم السلام ، ومقاماتهم عند الله ، وما يجب أن تكون عند

الناس ، ثم أمره سبحانه بطاعتهم وتوليهم بعد الله ورسوله (ص) . وسنرى ذلك إن شاء الله مفصلاً في مكان لاحق من هذا البحث .

وكذلك تبيانه سبحانه لأشراط الساعة ، وهو تبيان تدريجي يواكب تطور هذه الأشراط وتناميها في الخارج ، أرضاً وسماءً وربطاً بكتابه المجيد .

ولأنه سبحانه يلعن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بيَّنه للناس ، ولأنه تبارك وتعالى تفضل علينا

بعلم ما تعنيه ، أو بعض ما تعنيه هذه الأحرف ، فلذلك ومن باب أداء الأمانة من جهة ، والخوف من الوقوع في المعصية الكبيرة، التي هي كتمان ما علَّمنا الله بعدما بَيَّنَهُ للناس ، قررنا بإذنه تعالى ، الكتابة في هذا الموضوع ، وإبداء ما علمنا سبحانه من أسراره عن طريق العلم اللدني والإستنتاج والإستقراء في كتابه الكريم .

أما لماذا لم يذع رسول الله محمد (ص) ، هذا السر ، ولا سيما أنه آتاه منها ، أي من الأحرف النورانية (السبع المثاني) ، وكذلك لماذا لم يظهر ذلك الإمام علي كرم الله وجهه، بعدما جعله الله باب مدينة علم رسول الله (ص) وكذلك الأئمة من بعدهما ؟ فذلك لأن الله عز وجل **" قد جعل لكل شيء قدرا "**[1] في الزمان والمكان والأشخاص ولأن تأويل ما بدا ويبدو مغلقاً من القرآن ، ينبغي أن يؤول قبل قيام الساعة ـ إلاّ ما كان متعلقاً بيوم الحشر ثم بوعد الله ووعيده ـ ولأن هذه الأحرف كغيرها من المغلقات والأسرار القرآنية ، آن أوان تأويلها مرتبطاً بالضرورة بالثورة العلمية التي تكتسح الأعراف والبدع والتقاليد التي لا تثبت لمنطق العلم ولا لمنطق العقل ، ومرتبطاً بالضرورة ، بإرهاصات يقظة هذه الأمة ، بعد أن عاقبها الله عز وجل ، فأسقطها من شاهق المجد والعلم ، والعزة والقوة ، إلى الدرك الأسفل من الجهل والحيرة والذلة والمسكنة ، والتبعية لمجرمي الأرض وطواغيتها . وأخيراً لأن الله سبحانه بّين للناس في الكتاب الذي هو الكون من وجه والذي هو القرآن

---

(1) الآية 3 في سورة الطلاق : " قد جعل الله لكل شيء قدرا " .

من وجه آخر ، ما بيّنه عن هذه الأحرف وعن بقية المغلقات والأسرار القرآنية [1] ، لذلك كله ، لعله عز وجل ، لم يشأ إظهارها زمن محمد (ص) ومن أتى بعده من الأئمة والراسخين في

العلم ، وقد كان لكل منهم شأنه ومكانته عند الله والناس ، ودوره في مجالي التبليغ والتأويل ، بقدر ما قيض لهم الله وقدّر وقضى .

وهكذا يتحقق وعده سبحانه شيئاً فشيئاً ، بما يلقي على الناس الحجج الدامغة والبراهين الساطعة ، قوله تعالى :

{ سَنُرِيهِمْ آيـٰتنا في الآفَاقِ وفي أنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحقُّ ... سورة فصلت الآية 53 } .

---

(1) أنظر أشراط الساعة في كتاب (العقل الإسلامي) .

من هم الراسخون في العلم

ولزوم أن يُؤوَّل القرآن ، وشرائط التأويل :

الراسخون في العلم بصدد التأويل ، هم أمام ثلاثة عناصر :

1= الشرط الإلـٰهي .
2= أمر الله بتحققه[1] في خلقه (تدريجياً أو دفعياً) .
3= اكتمال التحقق علمياً في الآفاق وفي الأنفس .

فقوله تعالى : " وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ " (أي بالقرآن) " كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا " [2] أي :

1- الشرط الإلـٰهي .
2- أمر الله بتحققه ، ثم .
3- تحققه في الآفاق وفي الأنفس .

مثال ذلك ، قوله تعالى :

" وإذا النجوم انكدرت " [3]

---

(1) تحقق الشرط القرآني في الكون الخارجي المرئي أو المُدرَك .
(2) سورة آل عمران الآية 7 .
(3) سورة التكوير الاية 2 .

ففي مواجهة هذا الشرط الإلـٰهي ، وقبل أمر الله بتحقيقه ، يقول الراسخون في العلم : هذا { مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا }[1]، ويقول معهم عامة المؤمنين كذلك .

ثم يجد الراسخون في العلم أنفسهم في فضل الله ورحمته، غرباء عن جميع الناس في مواجهة العنصرين الباقيين : أمر الله بتحقيق شروطه ، ثم تحقق هذه الشروط . ملزمين أنفسهم بالتأويل الواجب عليهم لما علمهم الله وهيأهم له . ولولا ذلك لبقي القرآن

الكريم دون تأويل إلى قيام الساعة ، وهذا يتناقض مع ما أراد الله له وللناس ، من حيث عدله ورحمته وواسع علمه .

وهكذا فإن الراسخين في العلم ، إذا علموا عبر تتبعهم واهتمامهم وجوباً ـ بهذه الأشراط ، أن انكدار النجوم مثلاً ، أمر آخذ علمياً بالتحقق ، وأن ذلك ماثل في الآفاق ، علموا أن أمر الله صدر بشأنه ، فقالوا : { كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا }[1] أمر الله بتحقيقه ، وتحققه التدريجي في الآفاق . وعلى هذه فقس ما سواها ، قياساً علمياً مع البينات .

ولذلك يحمِّلهم الله مسؤولية التبليغ ، ويحمل الناس مسؤولية الإستنفار لُجُوءاً إلى الله وتقرباً إليه سبحانه ، وحذراً من المفاجآت التي أخطرها مباغتة الساعة عبر تحقق أشراطها .

من هنا نعلم لماذا أعطى الله سبحانه وتعالى ، صفة (الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ) لبعض العلماء الذين اختصهم برحمته ،

---

(1) سورة آل عمران الآية 7 .

وتفضل عليهم بأنوار من العلم والهداية والكتاب المنير . ذلك لأنهم ـ ولا قوة إلا به سبحانه ـ يتميزون عن جميع الناس ـ غير المؤمنين ـ بالأركان الأربعة التي ذكرنا : 1) ـ الإيمان بالقرآن ، قولهم :"آمَنَّا بِهِ"[1] وفي القرآن التوحيد الذي هو أصل الدين وأصل الكون وأصل الوجود ، وفيه أصول الدين وفروعه ، ثم الأركان الثلاثة التي ذكرناها تحت إسم عناصر التأويل .

وكما أنه سبحانه ميزهم عن عامة الناس بالأركان الأربعة ، التي هي سر رسوخهم ظاهراً وباطناً ، كذلك ميزهم عن عامة المؤمنين ، بإشتغالهم بركنين ، غير الإيمان بالقرآن

والتسليم بأشراطه ، مراقبة أمر الله بتحريك الأشراط ، ثم التتبع العلمي كما أسلفنا لتحركاتها ومساراتها وآثارها في الآفاق وفي الأنفس ، إضافة إلى تحميلهم مسؤولية إبلاغها للناس ، بقدر ما يمكِّنهم وييسر لهم سبحانه من مجالات .

لماذا سميت الأحرف النورانية بـ (المثاني) :

قال الله تبارك وتعالى :

{ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَديثِ كِتَاباً مُتَشَـابِهاً مَثَانيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلىَ ذِكْرِ اللهِ ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . سورة الزمر الآية 23 } .

---

(1) سورة آل عمران الآية 7 .

طبعاً ، بعد دراسة لغوية ـ قرآنية ، تبين أن لفظة (المثاني) القرآنية ، لها ثلاث معانٍ :

المعنى الأول :

من الثناء على الله عزَّت عظمته ، والثناء ، هو المديح تسبيحاً وتعظيماً وحُبَّاً وحمداً له سبحانه وشكرا ، بلغة تتناسب مع التركيب الإنساني الدنيوي ، نفسياً ومادياً ، عند بلوغ هذا الإنسان درجة اليقين والأهلية لهذا الذكر .

والفهم النسبي (للمثاني) أثناء الذكر ـ قراءةً أو ترتيلا ـ أمر طبيعي بالنسبة للمخلوق مهما علا قدره عند الله ، فإنه يبقى بالنسبة للألوهة ، ولعظمة الإلـٰه الذي لا إلـٰه إلا هو ، قليل العلم

، قاصراً عن إدراك عظمة الله كلها ، ناهيك عن ألإحاطة بهذه العظمة . وبكلمة موجزة ، إن علم المخلوق مهما علا قدره عند ربه العظيم ، فإن علمه وإدراكه وإحاطاته لا تكاد تذكر ولا تقاس بعلم رب العالمين ، الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو بكل شيء محيط .

فلذلك ، إن الذكر بـ (المثاني) علـى فهـم نسبـي عند العربي[1] ، كما الذكر ، بكلمة (سبحان الله) عند غير العربي . فماذا نفهم من كلمة (سبحان) ؟ ما دام حتى العربي ، وبشكل يكاد إجماعياً ، يقول أن معناها التنزيه . يعني إن العربي عندما

---

(1) من عظمة عدالة الله ورحمته سبحانه ومصداقية قوله عز وجل :
{ يـأيها الناس إنا خلقناكم ... إن أكرمكم عند الله أتقاكم } أن جعل أجْرَ الذكر بالأحرف النورانية ، ووحدة النظر عند العرب وغير العرب إلى أنها رموز يقرأها العربي كما يقرأها غير العربي ، وعند فهمهـا يشترك جميعهم فيه .

يقول سبحان الله ، يجب أن يقرن معها معنى (أنني أنزه الله)، وهذا خطأ ، وعند العارفين خطيئة ، فليس لمخلوق أن يكون له شرف أن يُنَزِّهَ الله ، إذا كان هو سبحانه تنزه بذاته ، وهذا معنى (سُبْحَانَ الله) ، أي تَنَزَّهَ اللهُ ، أي نزَّه ذاته بذاته ، وهو غني عن مخلوقاته وفي ذلك : (التنزيه عن التنزيه) . تماماً ، كما أنه ليس لمخلوق أن يُبَارِكَ اللهَ ، بعد أن تَبَارَك هو سبحانه ، أي بارك ذاته بذاته : { فسُبْحَـانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ }[1] ، { أمْ لَهُمْ إلـهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَـانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ }[2] ، { هُوَ اللهُ الَّذي لا إلـهَ إلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَـامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَـان اللهِ عَمَّـا يُشْرِكُونَ } [3] ، { فَتَبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخَـالِقِينَ } [4] ، { ألاَ لهُ الخَلقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَـالمين } [5] .

يبقى ضمن المعنى الأول ، أن كل شيء ، وكل مخلوق مؤمن في الحياة الدنيا ، من الناس وغير الناس ، يستجيب لهذا الذكر ، إذا سمعه ، ويشارك فيه ، على بركات ورعايـة وحب لله ومن الله تبارك وتعالى [6] .

---

(1) سورة الأنبياء الآية 22 .
(2) سورة الطور الآية 43 .
(3) سورة الحشر الآية 23 .
(4) سورة المؤمنون الآية 14 .
(5) سورة الأعراف الآية 54 .
(6) يبدو أن هناك لغة كونية مختصرة جداً ، تعرفها جميع المخلوقات ، غير الإنسان ، وتتخاطب بها . وإذا علّمها الله لأحد من الناس ، فإنه يستطيع بها أن

يفهم لغة الخلائق . وقد علمها سبحانه لسليمان (ع) ففهم بها لغة النمل وخاطب الجن وحاور الهدهد . أما قوله تعالى : { وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يـٰـأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَالفَضْلُ المُبِينُ) . فقوله (عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ) هو من باب التخصيص ما دام سبحانه قد ذكر له التخاطب مع غير الطير من البهائم ، وهو من قبيل قوله عز وجل ، مخصصا : (... وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّـٰثَـٰتِ فِي العُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) بعد تعميمـه في قولـه تعالـى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ...) . ولا يمنع أن تكون هذه الرموز التي نحن بصددها داخلة في هذه اللغة الكونية ، فيفهمها جميع الخلق بنعمة الله وكرمه وحمده .

المعنى الثاني :

المثاني جمع مثنى ، وهو الذي يلي الأول [1] قال تعالى :

{ الحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوات والأَرضِ جَاعِلِ المَلائكةِ رُسُلاً أولي أجْنِحَةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ .. }[2] ، { قُلْ إنَّمَا أعِظُكُمْ بواحِدَةٍ أنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بصَاحِبكُمْ مِنْ جِنَّة إنْ هُوَ إلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَديدٍ } [3] .

ثم إن الفارق بين اللغة العربية الأرضية ، وبين اللغة العربية السماوية ، ترمز إليه الآية الكريمة قوله تعالى :

{ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَديدٌ } [4] .

فحتى أرقى الناس فِكْراً في الحياة الدنيا ـ خلا أولي العزم من الأنبياء والرسل ـ سينسحب على كل فرد منهم قوله تعالى :

" لقدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَديدٌ " .

وتبعاً لذلك ، تكون أرقى قراءاتِنا للكتاب الأعظم في الأرض ، القرآن الكريم ، هي كذلك في غفلة .. في غفلة عن

---

(1) لسان العرب لأبن منظور .
(2) سورة فاطر الآية 1 .
(3) سورة سبأ الآية 45 .
(4) سورة ق الآية 22 .

لَمَحَانِ المعاني ، وعن سبر أغوار الكتاب مجملا ، وعن سبر أغوار كل سورة مجتمعة ، وعن سبر أغوار كل آية ثم كل كلمة ثم كل حرف.

فإذا كشف عنا الغطاء ، إذاً بصرنا يومذاك حديد . فنفهم يومئذ ، وباللغة العربية الأخصر والأروح والأجمل ، وبعمق شمولي إنساني ، ما معنى (الكتـٰـب) و (أم الكتـٰـب) وما معنى كل حرف من حروف النور ، تماماً وكمالاً وعلى بركات الله وحب الله ورحمة الله ذي الجلال والإكرام .

فإذا كانت عوالم الملكوت فما فوقها ، هي بالضرورة أرقى وأعلى من عالم الناس الأرضي الدنيوي . فلا بد أن يكون لها خصوصيات من ذكر الله ، تبعاً للفارق بين أهلها وأهل الأرض الدنيا ، لغةٌ أكثرُ تفوقاً . وقريباً من المعلوم ، عند أهل العلم ، أن القرآن الكريم ، حسب النصوص القرآنية ، أنه أُنزل مرتين : مرة دفعة واحدة إلى السماء الرابعة [1] ، ومرة نجوماً إلى الأرض الدنيا ، على قلب رسول الله محمد (ص) وكلاهما بالعربية .

ومن هنا يتبين أن نزوله دفعياً كان بالعربية الأرقى ، التي

---

(1) يدل على أن القرآن الكريم أنزل دفعة واحدة ، النص القرآني قوله تعالى : { إنا أنزلناه في ليلة القدر . سورة القدر الآية 1 } . وقوله سبحانه : { إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين . سورة الدخان الآية 3 } . . أما كونه أنزل إلى السماء الرابعة ، فذلك من روايات كثيرة عن النبي (ص) وعن أئمة أهل بيت النبوة عليهم السلام .

يحسب فيها حساب كل حرف ، كما نحسب في الدنيا حساب الجمل والفقرات وحتى حساب السورة الكاملة . وهذه اللغة بانتظارنا بعد البعث ، على أنها كونية ولجميع الناس ، لأن القرآن هو الخاتم والمهيمن على ما بين يديه مما أنزل الله تعالى على أهل الدنيا . وبعد الإنعتاق ، سيتكلم كل إنسان بهذه (الكونية) بدون تعلم [1] .

وطبيعي أن هذا الذكر الملائكي ـ قبل البعث ـ من حيث الدرجة ، هو الأول ، ومجموع الأسماء الحسنى ، التي يتشرف بها الذاكرون في العوالم العليا هي الأوائل . بينما يكون مجموع الأسماء الحسنى ، التي يتشرف بها الذاكرون الناجون من أهل الدنيا ، هي المثاني . حيث أنهم سيكرمهم الله سبحانه بأن يذكروه ويسبحون بأسمائه الحسنى (الأوائل) بعد الإنعتاق من مستلزمات العيش في مناخات هذه الحياة الدنيا [2] .

---

(1) انظر (كتاب (العقل الإسلامي) للمؤلف .

(2) إذا قيل ليس في الآخرة عبادة ، فهو صحيح . وإنما هناك ذكر يكنى به عن شكر الله وحبه . وما يدل على بقاء الذكر الذي هو حياة المحبين في الدنيا والآخرة ، كما يدل على سعادة العقل وشرف العقل والإستزادة من كل علم أو فن أو جمال ممتع للنفس وللعقل ، قوله تبارك وتعالى : { وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَه وَاوْرَثَنَا الأرْضَ نَتَبَوَّأ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أجْرُ العَـٰمِلِين . وَتَرَى المَلائِكَةَ

حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وقُضيَ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ وَقيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَـٰلَمينَ . سورة الزمر الآيات 74 ـ 75 } .

المعنى الثالث : [1]

[(المثنى هو الزمام) ، والزمام ، ما يشد به رأس الدابة لقيادتها ، الزمام ما يزم به الشيء . وزمَّ زمَّاً الشيءَ : شَدَّهُ فانزم. وزمَّ البعير : خَطَمَهُ . (وألقى في يده زمام الأمر) جعل له الرأي فيه يقضي بما يشاء . والجمع أَزِمَّة] [2] .

فالذاكر بهذه الأحرف النورانية أو (المثاني) كما سماها تعالى في القرآن الكريم أو أسماء الله الحسنى ، كما تفضل الله سبحانه على من تفضل بشأنها ، إضافة إلى المعنيين السابقين ، إنما هي أزمّة يزم بها شياطين الجن والإنس ، ويقودهم بعيداً عن الإضرار بالمؤمنين ، ويَخْطُمُهُمْ ويضيّق عليهم ، حتى يصبحوا معها لا حول لهم ولا قوة ، ويولوا منهزمين .

كل ذلك الذي ذكرناه من معاني المثاني ، يؤتي الله سبحانه منه بعضاً مِنْ كُلٍّ لمن يشاء من عباده الصالحين ، لكل حسب درجته وأهليته ، وقد اختص رسوله محمداً (ص) بسبع منها هي أعظمها شأناً إضافة إلى القرآن العظيم . قوله تبارك وتعالى :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنْ [3] المَثَاني وَالقُرآنَ العَظيمَ }[4].

---

(1) المعاني الثلاثة هذه هي إنطباقية كلية على الأحرف النورانية .
(2) (معجم عربي حديث) ـ لسان العرب : ابن منظور .

(3) (مِنْ) في هذه الآية الكريمة هي للتبعيض . وهي تسقط كل المزاعم التي حددت سورة الحمد واعتبرتها (السبع المثاني) لأنها سبع آيات . كما تسقط بقية المزاعم عن اعتبار جميع الأحرف النورانية هي (السبع المثاني) .

(4) سورة الحجر الآية 87 .

القشعريرة من المثاني :

القشعريرة التي عنيناها هي التي في قوله تبارك وتعالى :

{ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَديثِ كِتَاباً مُتَشَـٰبِهاً مَثَانيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُم إلى ذِكْرِ اللهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } (1) .

فقوله تعالى : { تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ إلَى ذِكْرِ اللهِ } دليل يفتقر إليه الباحث المتعبد ، أو قارىء القرآن ، لمعرفة حقيقة إيمانه ويقينه . وذلك يحصل غالباً مع كل آية من المتشابهات ، إلا أن القشعريرة تطول مدتها ويكون استشعارها أبلغ ، لدى معرفة أن الأحرف النورانية هي المثاني وهي أحسن الحديث ، وأن المعاني التي ذكرناها آنفاً هي بعض معانيها . فإذا وقع لقارىء القرآن ، أو الباحث في معانيه ، أن اقشعر جلده ، وشعر بذلك للحظات ، أو لدقائق ، أو دائماً ، بطريقة يقشعر معها الجلد ثم يلين مع كل نعمة من نعم الله التي في المثاني وغيرها من الآي ، فليطمئن إلى إيمانه وإلى يقينه وإلى فضل الله وكرمه ورحمته ونعمه . ثم عندما يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله ، فليوقننّ أنه هُدِيَ إلى أحسن الحديث ـ الآية : فـ { ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (1) .

(1) سورة الزمر الآية 23 .

المُحْكَمُ والمُتَشَابِهُ

معنى (المتشابه) في القرآن الكريم :

في اللغة العربية : [الشبه : (بضم الشين وكسرها) ، المثل والمشابه . وتشابه تشابهاً (شبه) الرجلان : أشْبَهَ كلٌ منهما الآخر . وتشابه الأمران : تساويا حتى التبسا] [1] . وفي القرآن الكريم قوله تعالى : { وَهُوَ الّذي أنْزَلَ من السَّمَاءِ مَاءً فَأخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٌ مِنْ أعْنَابٍ والزَّيْتُونَ والرُّمَانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ انْظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ وَيَنْعِهِ إنَّ فِي ذلِكُمْ لآيـٰتٌ لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ } [2] .

فالتشابه الذي في هذه الآية ، هو تشابه بين ثمار معروفة لدينا : زيتون وزيتون ، أسود وأخضر ، صغير وكبير وأشكال متفاوتة . ثم رمان بين حلو وحامض وما بينهما درجات ، وألوان وأحجام مختلفة ، وهكذا فبين أفراد كل فصيل منهما (الزيتون والرمان) . تشابه ، بين الحسن والأحسن ، والطيب والأطيب .

ثم قوله تعالى :

{ وَبَشِّرِ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ أنَّ

(1) لسان العرب - ابن منظور .

(2) سورة الأنعام الآية 99 .

لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رزْقاً قَالُوا هَذا الذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشَـٰبِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ }[1] .

أما التشابه الذي في هذه الآية فهو تشابه بين معروف ومجهول ، بين فرعي مؤقت ، وأصلي دائم .

وعلى هذا الأساس ، ينبغي فهم الآيات المتشابهات في القرآن الكريم ، وهي المشار إليها في قوله تبارك وتعالى في سابعة آل عمران :

{ هُوَ الَّذِي أنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَـٰبَ مِنْهُ آيـٰتٌ مُحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أمُّ الكِتَـٰبِ وَأخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ .. }

بعض وجوه المتشابه :

وفيما يلي بعض وجوه وخصائص الآيات المتشابهات :

= المتشابه فيه قابلية التأويل .

= بعض المتشابه متغير ـ في تحققه ـ باتجاه الأرقى

(1) سورة البقرة الآية 25 .

والأعم ، مثال ذلك قوله تعالى :

{ خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأرْضَ بِالحَقِ يُكَوّرُ اللّيْلَ عَلَى النَّهَار وَيُكَوّرُ النَّهاَرَ عَلَى اللّيْلِ } (*) .

(*) سورة الزمر الآية 5 : هذه الآية ، فهمها معاصروا محمد (ص) فهما ظاهرياً متصلاً بمفهوم كون الأرض مسطحة . تحيط بها بحار الظلمات ، وأنها ثابتة ، وكذلك النجوم وأن الشمس وحدها تتحرك وتسافر بين المشرق والمغرب (نظرية بطليموس) وبقي الأمر كذلك حتى القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ، حين عرفت كروية الأرض ثم دورانها على نفسها وحول الشمس بعد ذلك ، فعندها ـ بعد ألف سنة تقريباً ، عرف أهل الأرض كما عرف معهم المسلمون ـ ولو معرفة ناقصة ـ معنى قوله تعالى : (يُكَوّرُ اللّيْلَ عَلَىَ النَهَارِ وَيُكَوّرُ النَهَارَ عَلَىَ اللّيْلِ) . أما المعرفة الكاملة لمعنى هذه الآية ، التي تخرجها إلى كامل تحققها في الخارج ، فهي عملية التكوير العام ربطا بليل ونهار كونيين يتداولان السماوات والأرضين أمام نور عام كوني .

الله هدى الراسخين وأزاغ قلوب الزائغين

قوله تعالى :

{ هُوَ الّذي أنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَـٰـبَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَـٰـتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَـٰـب وأُخَرُ مُتَشَـٰـبِهـٰـتٌ فَأمَّا الّذينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبعُونَ مَا تَشَـٰـبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأويلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأويلَهُ إلاَّ اللهُ والراسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌ مِنْ عِنْدِ رَبّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الألْبَـٰـبِ } [1] .

مقصدنا الآن ، من هذه الآية الكريمة ثلاثة أمور هي الأهم في تاريخ التفسير ، بعدها نُفَصِّلُ القول إن شاء الله ، في المحكم والمتشابه :

الأمر الأول : قوله تعالى : { فَأمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأويلِهِ } .

والأمر الثاني : قوله تعالى : { وَمَا يَعْلَمُ تَأويلهُ إلاَّ اللهُ } .

الأمر الثالث : قوله تعالى : { وَمَا يَعْلَمُ تَأويلهُ إلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ ... } .

فإلى الأمر الأول ولا قوة إلا بالله الأحب الأعز الأجل الأكرم ، اللهم بك أستعين ، عليك توكلتُ وإليك أنبتُ وإليك المصير ، وأنت حسبي .

---

(1) سورة آل عمران الآية 7 .

أولاً ـ من هم الذين في قلوبهم زيغ يبتغون الفتنة ويبتغون تأويله ؟

قال تعالى في نفس الآية السابعة من سورة آل عمران : { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأويلهُ }. { الَّذِينَ فِي قلوُبِهِمْ زَيْغٌ } ليسوا كفاراً ولا مشركين ، بل هم بالضرورة مسلمون قرآنيون .

وقد نتج عن اتباعهم ، المتشابه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله: الكوارث التاريخية التالية :

أ) فتنة السقيفة .
ب) فدك وتأويل القرآن خطأ [1] .
ت) الفتوحات واستبعاد علي كرم الله وجهه [2] .

---

(1) فدك مزرعة في المدينة كانت ملكاً لرسول الله محمد (ص) أورثها لإبنته فاطمة عليها السلام . فمنعوها إياها بعد وفاته { بحجة حديث مدّعى عنه (ص) أنه قال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث } . وذلك في أكثر من موقف مأساوي ، مما نتج عن ذلك نتائج تاريخية مأساوية . وعندما احتجت فاطمة عليها السلام بالقرآن ، بقوله عز وجل : { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ }، أَوَّلُوا الآية هذه بغير حقيقتها ، قائلين أن سليمان إنما ورث العلم والنبوة ، علماً أن النبوة لا تورث .

(2) أمر سبحانه بأن تكون أمرة المؤمنين وخلافة رسول الله محمد (ص) لعلي بن أبي طالب ، في أكثر من آية قرآنية مدعمة بالوقائع التاريخية التي كان قطبها الأروع علي بن أبي طالب ، بدون مزايد ولا منافس ولا مزاحم . فكان حَرِيّاً أن يخطط هو للفتوحات وأن يقودها ، لأنه لو أعطي حقه الشرعي في ذلك ، لكان

بسط الإسلام على كافة هذا الكوكب ، ولما كانت عانت الأمة وما زالت تعاني من انتكاسات وهبوط وتراجعات لتاريخ كتابة هذه السطور. ومن الآيات التي كانت ملزمة للقوم ، في تقديم علي بن أبي طالب عليه السلام ، إلاّ أنهم أوَّلوها التأويل المُنْكَرُ للمتشابهات ، قوله تعالى :

{ إنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ والّذينَ آمنوا الّذينَ يُقيمُونَ الصَّلوٰة ويُؤْتُونَ الْزَكَواة وَهُمْ رَاكِعُونَ . سورة المائدة الآية 55} .

وقوله تعالى :

{ يَا أيُّهَا الّذِينَ آمنُوا أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأولي الأمْرِ مِنْكُمْ فإنْ تَنَـٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تَأويلاً . سورة النساء الآية 59 } .

وغير هاتين الشهيرتين ، كذلك الشهيرتان الأُخْرَيَان : آية التطهير.

قوله تعالى :

إنَّمَا يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهيرا . سورة الأحزاب الآية 33 } .

وآية المباهلة ، قوله تعالى :

{ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُ أبْنَاءَنَا وَأبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأنْفُسَنَا وَأنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الكَـٰذِبينَ . سورة آل عمران الآية 61 } .

ثم الخاتمة ، التي أنزلت في غدير خم ، بعد أن أعلن رسول الله (ص) على الملأ الغفير من الحجيج ، في حجة الوداع ، أن الله عز وجل ، أمر بتولية علي بن أبي طالب ، واستخلافه وتعيينه أميراً للمؤمنين دون منازع . وبعد أن بلَّغ رسول الله (ص) ، وشهدت الخاصة والعامة من الألوف المؤلفة ، أنزل الله عز وجل :

{ اليَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُم واخْشَوْنِ اليَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينَا . سورة المائدة الآية 3 } .

على أن من يُريد الإستزادة ، فقد صُنِّفَتْ في هذا الأمر مجلدات ، بأقلام صِدِّيقة شريفة ، فلتراجع .

ث) علي ومعاوية - علي والخوارج . يعني بداية اقتتال المسلمين . ولإزالة ما يسبب هذا الموضوع من غصص ، وشعور بالأسى العميق والمرارة ، عند أنصار الله الأصفياء والأنقياء من المسلمين ، نذكر الآية الكريمة التي كان يستشهد بها الإمام علي عليه السلام ، وهي قول الله عز وجل : في سورة البقرة آية 253 :

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِنَـٰـتِ وأَيَّدْنَـٰهُ بروحِ القُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ البَيِنَـٰـتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُريد } .

جـ) كربلاء : النكسة التاريخية الثانية للأمة بعد السقيفة .[1]

---

(1) إضافة إلى الآيات القرآنية التي أبرزت قيمة الحسنين بني علي بن أبي طالب بني فاطمة الزهراء بنت رسول الله محمد (ص) كمنارتي هداية للأمة وكنزين لها مذخورين ، فقد أجمعت الأمة على أحاديث كثيرة في شأنهما عن النبي (ص) أبرزها : (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة) أما الحسن ، فقد أرسل معاوية إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس زوجة الحسن، أني مزوجك ابني يزيد على أن تَسُمِّي الحسن ، وبعث إليها مائة ألف درهم، ففعلت وسمت الحسن ، فسوَّغها المال ، ولم يزوجها من يزيد .

وأما إرث محمد (ص) ووريثه الآخر ، الحسين (ع) ، فقد عزموا عليه أن يبايع الطاغية يزيد بعد وفاة الطاغية معاوية . فأبى الحسين وسار بكوكبة تاريخية من أبنائه وإخوانه ونسائه وبعض أصحابه

الأبرار الشجعان الميامين ، مستجيباً لدعوة من شيعته وشيعة أبيه (ع) في كوفان العراق .
وهناك انقلب عليه القوم ، معظمهم ، جبناً ورغبة عن الحق إلى باطل الدنيا الدنية . ومالاؤا الجهاز الحاكم بكل كفره ووحشيته ، وطغيانه واستكلابه . وكان حكم الجهاز الحاكم هو الإصرار على الذبح الجماعي . فذبح هذا الحسين (ع) ، بعد أن ذبح أمام عينيه أطفاله وإخوانه وأصحابه جميعاً .

وبهذا المستوى من الفظاعة والفظاظة التاريخية ، سبيت نساء الحسين (ع) ، أزواجه وبناته وعلى رأسهن أخته زينب بنت علي (ع) بطلة كربلاْ ، من العراق ، إلى مجلس الطاغية يزيد في الشام ، وعلىأقتاب

الإبل . يتقدم موكبهن أمام أعينهن حملة الرؤوس على أسنة الرماح ، وفي مقدمتها الرأس الشريف ، رأس الحسين .

في القرآن المجيد ، في سورة الشمس ، هذه الآيات :

{ كذَّبَتْ ثَمُودُ بطَغْوَاهَا . إذْ انْبَعَثَ أشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بذَنْبهِمْ فَسَوَّاهَا. وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا } .

وواضح في هذه الآيات الكريمة ، أن رسول الله ، وهو صالح (ع) قال لقومه ثمود (ناقة الله وسقياها) أي احفظوها وانتفعوا بها . فكذبوه فذبحوها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ، فدمَّر مدائنهم وحضارتهم وسوَّاها بالأرض بعد أن جعلها قاعاً صفصفا . وما يتبادر إلى الذهن بسرعة هنا هو المقارنة بين الحسين (ع) . وبين الناقة . فإذا كان سبحانه غضب هذا الغضب الشديد لأجل ناقة جعلها مصدر نفع للقوم فعقروها . فكيف يكون غضبه للحسين الإنسان الذي هو صفوة أحَبِّ الأنبياء رسوله محمد (ص) . لا شك أن العذابَ واقعٌ بهذه الأمة منذ ذلك الحين ، عذابَ خِزْيٍ وإهلاك وتدمير ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ويخشى أن يكون هذا العذاب باقياً حتى يتوب القوم ويرجعوا إلى الله وآياته ويؤولوها كما أراد سبحانه وتعالى عما يصفون .

حـ) بنو أمية وتوارث الحكم وجعله ملكياً [1] .

---

(1) في الخلاف بين علي (ع) ومعاوية ، وجدت الأمة نفسها وجهاً لوجه مع هذه الآية الكريمة :
{ وَإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأصْلِحوُا بَيْنَهُمَا فَإنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الأخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتي تَبْغي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أمْرِ اللهِ فإنْ فَاءَتْ فَأصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بالعَدْلِ وأقْسِطُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ . سورة الحجرات الآية 9 } .

وانقسمت الأمة ، في وقت ، كان يجب عملاً بهذه الآية أن تقف جميعها إلى جانب عليٍ الخليفة المنتخب المبايَعِ على صعيد الأمة كلها . وبغى معاوية ، وأعلن العصيان وهيأ للقتال . فكان باغياً بالنص الواضح

الذي لا يقبل مناقشةً ولا تأويلا . ووقف معه رجال ووقف أقوام . وكان لا بد لعلي (ع) من القتال دفعاً عن دين الله الذي هو آنذاك مؤتمن عليه على مستوى الأمة جمعاء . وكانت المعارك التاريخية والقتلى بالمئات والألوف . ثم كانت الخدعة المشهورة برفع المصاحف .

ثم كان التحكيم غير الشرعي ، والذي أكره عليه الإمام علي (ع) . ثم خرج الخوارج نتيجة لذلك فِتَنٌ هائلة متداخلة ، أهدرت دماءً غزيرة وهِمَماً ورجالاً وحضارةً كان مكتوباً لها أن تبسط العدالة والحرية والسعادة على أهل الأرض في دنياهم وتجعل منها جسراً صِراطاً مستقيماً لأُخراهم . هذه الحضارة هدمها معاوية وحزبه ، وما زال محازبوه ناهجوا نهجه ، الراضون بفعلته ، في واقع الهدم وواقع العقوبة وغضب الله .

بغى معاوية ، وألقى الأمة في هُوَّةٍ كأنها بلا قرار، ما زالت فيها لتاريخه.

بغى معاوية تحت ستار الثأر للخليفة عثمان ، ولكنه أهلك الأمـة وكذَّبَ .. وكَذَّبَ .. فحوَّلَ الأمة إلى مُلْكٍ عَضُوَضٍ يتوارثه الأبناء عن الآباء ، الطغاة عن الطغاة .

ما تتجرعه الأمة اليوم من غصص ، هي ثمرات لما زرع معاوية والذين توارثوا الخلافة من بعده : بنو أمية .

خـ) بنو العباس وتوارث الحكم وجعله ملكيا [1] .

---

(1) كان النشاز في حكم بني أمية واضحاً عند جماهير المسلمين ،عند العقلاء منهم منذ اللحظة الأولى . ولا سيما أنهم يقرأون القرآن ، ويقرأون فيه :

{ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُمُ الظَّالمُونَ } ...

ويعلمون أنَّ أصحاب الحق في هذه الخلافة ، هم أهل بيت النبوة عليهم السلام . وتفاعلت النقمة ، ثم الغضب الصامت ، ثم تأجج الغضب ، ثم انفجر في ثورة قادها العباسيون تحت شعار : (الرضا لآل البيت) . ونجحت الثورة نجاحاً منقطع النظير ، وإنما ، كأنما في بحيرة دماء ، دماء الأمويين . ثم بدا أنها تناست (الشِّعار) ، ثم اتضح أنها نسيته تماماً . فالملك عقيم ، للذين لا يخافون الله ، وهمُّهُم الدنيا وليس الدين . فانقلب بنو العباس على بني عمهم أهل بيت النبوة وأخذوا يترصدونهم تحت وطأة القتل والتشريد ، والتهديد والوعيد . وكأسلافهم بني أمية ، ثَبَّتُوا حكمهم

على الدماء الغزيرة وجثث المسلمين . وكأسلافهم كذلك جعلوا الخلافة مُلْكاً عضوضاً ، يتوارثونه ، فِعْلَ الوثنيين القياصرة والأكاسرة ، وهو حرام في الإسلام الحنيف .

وكانت حضارة في عصرهم عظيمة .

إلا أنها يقيناً مشكوك في استقامتها ، وحتى في حروبها ، وحتى في فتوحاتها الثقافية ، تأليفاً وترجمةً وفلسفاتٍ، فقد كانت في غضب الله ، بدلالة أنهم ـ كما ضرب الله بهم الأمويين ـ قد ضربهم هم وضرب حضارتهم هذه التي يبكي ويتباكى عليها أكثر الناس الذين لا يعلمون ، كما يبكون على الأندلس . نعم دمَّر الله هذه الحضارة بموجات البربر والتتار ، من جنكيزخان ، إلى هولاكو ، إلى تيمور الأعرج . وعندما انحسرت أمواج التتار العاتية ، كان قد بقي من الأمبراطورية التي بسطت أجنحتها على أكثر من ثلاثة أرباع الأرض ، دويلات وإمارات تتنازع وتتقاتل ، بروح قبلية همجية كان قد أسقطها الإسلام ، وما زالت هذه الأمة

كذلك في عصرنا هذا ، ممزقة يطبعها غضب الله بالجهل والخلاف ، والتبعية لمستعمريها وسارقيها وقاتليها ، إلى هذا الحين . إن أبرز ما في هذه الدويلات اليوم ، أنها تحمل من الإسلام إسمه ، وتتنكر لمضمونه . فهي تشن على الحركات الإسلامية ـ حتى المعتدلة منها ـ حرباً قمعيةً دمويةً لا هوادة فيها . تُزايد بهذا العداء الحاقد على الأعداء الحقيقيين العالميين لدين الله وشرع الله وأنصار الله . فـ { إِنَّ الّدينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْـلامُ } ، { وَمَنْ يَبْتَغي غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ } . و { هُوَ الّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ.. } { إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعيداً وَنَرَاهُ قَريباً } . صدق الله العلي العظيم .

د) الفقه ، واستبعاد فقه علي وبنيه الورثة المباشرين لعلم رسول الله (ص) [1] .

---

(1) ومع هذا الإستبعاد فقد كان فقه علي بن أبي طالب هو الشجرة التي تفيأ في ظلالها وقطف ثمارها فقه جميع المذاهب الإسلامية ، عن قصد أو غير قصد . سواء كان الأخذ عنه مباشرة ، أو عن أبنائه وأهل بيته عامة . ولا بدع في ذلك وهو الذي أجمعت الأمة على أن رسول الله (ص) قال فيه : (أنا مدينة العلم وعلي بابها) . وبديهي أن لا يُدْخَلَ إلى هذه المدينة إلا من بابها ، ذاك المؤيد المجتبى من الله عز وجل .

فمذهب الأشاعرة ، مثلا ، الذي استقر عند الأشعري أبي الحسن علي الذي أخذ عن أبيه الحسن علي ، عن أبيه ابن أبي بشر الأشعري ، وأبو بشر كان استاذه أبو علي الجبائي (أحد كبار مشايخ المعتزلة) وأبو علي الجبائي أخذ عن شيخ المعتزلة واصل بن عطاء كبير علماء الكلام ، وواصل بن عطاء عن أبي هاشم (عبد الله بن محمد بن الحنفية) وهذا عن أبيه محمد (بن الحنفية) بن علي بن أبي طالب . فيكون الإمام عليه السلام في ذروة هذه السلسلة البارزة في تاريخ الفقه الإسلامي .

وفي مجال ثان وبالنسبة لأكبر المذاهب الإسلامية تقريباً ، عنيت به المذهب الحنفي ، وهو المنسوب إلى (الإمام الأعظم) كما أسماه

العباسيون ، وما تزال هذه التسمية قائمة في الشريحة الإسلامية التي تعمل بفقهه من هذه الأمة . ومشهور عند القاصي والداني أن أبا حنيفة النعمان تعلم لمدة سنتين عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، والإمام جعفر هو إبن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين سيد الشهداء بن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام جميعاً . وكما هو واضح كذلك في هذه السلسلة ، فهي تنتهي إلى الإمام علي بن أبي طالب ، فهو منها في الذروة السامقة .

وما قيل في المذهب الحنفي ، كذلك يقال في المذهب المالكي . ونختم به القول ، إذ يكفي هذا للإعتبار واليقين بعصمة أهل البيت

هؤلاء وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي عليه السلام . فعن علي أخذ ابن عمه عبد الله بن عباس ، الذي كان يُسأل : ما علمك من علم ابن عمك (يعني علياً) ؟ فيجيب : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . وعن عبد الله بن عباس أخذ عكرمة ، وعن عكرمة أخذ ربيعة الرأي ، وعن ربيعة أخذ مالك بن أنس الذي عليه رسا المذهب المالكي وتحددت معالمه .

وقبل أن نختم تعليقنا هذا ، نذكِّر بأن جميع أصحاب هذه المذاهب وغيرها رغم كونهم أخذوا بشكل مباشر أو غير مباشر عن علي بن أبي طالب ، فقد أقفلوا باب الإجتهاد ، مما جمَّد الفقه الإسلامي ، وجمَّد بالتالي الأمة عن تمددها الفكري والتشريعي والحضاري . إلا أولئك الذين استمروا في مفهوم التوحيد وعدم تأليه المخلوقين ، على نهج أهل بيت النبوة ، فما زالوا في طاعة الله ورضاه ورضوانه ، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وأقلامهم . فنسأل الله عز وجل وتبارك وتعالى أن يلهم الجميع إلى التوحّد في طاعة الله عز وجل ، وطاعة أولي الأمر ، ممن اصطفاهم سبحانه واجتباهم سفن نجاة في خضم التاريخ الحالكة لياليه ، المتلاطمة أمواجه .

فأما الذين في قلوبهم زيغ ، فلن يستجيبوا لهذه الحقائق ، كبرا وعنادا وعصبية . وأما الذين يعقلون ويتفكرون ، ويتقون الله حق تقاته ،

فعسى ، إن استجابوا ، أن يكونوا ممن وعدهم سبحانه بوراثة الأرض والنعيم المقيم .

ذ) التمذهب [1] .

(1) السؤال المفجع في التاريخ الإسلامي : لماذا كانت المذاهب ؟ والمذاهب مزقت الأمة ، وأوقعتها في التناحر فيما بينها حتى أزالتها عن القمة الحضارية الإنسانية التي بلغتها بفضل الله وبفضل تعاليمه .

أيام لم تكن المذاهب ، ورغم مفارقات السقيفة ، ونشازات الذين في قلوبهم زيغ ، فقد انطلق المسلمون أمة واحدة ، وبأعداد قليلة وعُدَدٍ ضئيلة ، إذا قيست بجيوش الفرس والروم . انطلقوا وأزالوا الأمبراطورية الفارسية وطوّعوا حضارتها العريقة لمصلحة هذا الدين الحنيف . كما هزموا جيوش الأمبراطورية الرومانية وأزالوها من جميع مواقعها في الشرق ، وجعلوا فلولها تتقوقع في القسطنطينية إلى حين . ثم كانت المذاهب ، عبر الغي الذي بغاه معاوية ، ومن بعده بنو أمية ، ومن بعدهم بنو العباس .

ولولا أن الأمر بقي على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وباب مدينة علمه علي بن أبي طالب ، والوارثين من بعده المشاهير المشهود لهم بإجماع من أبنائه ، لكانت بقيت الأمة أمة واحدة ، وبقي الدين ديناً واحداً ، وبقيت شمس الحضارة الإسلامية تغمر كل بقعة من بقاع هذه الأرض ، وتشيع فيها العدالة والرحمة والمحبة ، بدلاً من ظلم الظالمين وسفك الدماء ، والفوضى العارمة الموقعة في الحيرة والضلالات

المهلكات ، إلا من رحم ربك . ولو أن الأمة الإسلامية ـ على تراجعها المخزي ـ بقيت في منجى من أعداء الله ، لهان الأمر ، ولكان ذلك مقبولاً مع الحسرات . ولكن الطامة الكبرى ، التي أصبح يرتعش لها غضباً كيان كل مسلم عنده ولو ذرة من شرف أو كرامة ، هي هذه الحرب الضروس التي تشنها دول أهل الأرض كلها ، مطبوعة بطابع الصهيونية والوثنية العالمية ، متمثلة بالغرب الذي تخلى عن مسيحه ومسيحيته ، والشرق الذي أصبح ممزقاً بين الإلحاد وعبادة الأصنام .

فهل يعود المسلمون إلى دينهم الحنيف ؟ هل يعودون أمة واحدة ؟

فيتوب الله عليهم وينقذهم من ضلالاتهم والخزي الذي هم فيه . وينصرهم النصر المبين . نحن بذلك موعودون . فعسى أن يكون قريباً ، ولينصرن الله من ينصره . فينجو حتى الذين في قلوبهم زيغ ، إذا رشدوا واستقاموا ، ونظروا بالعين الدامعة ، انتصاراً لله ولدينه ولأمة الإسلام ، وليس بالعين الطامعة بالجاه الحرام والمكسب الحرام والإنحياز الحرام والتعصب الحرام ، ولا بالقلوب الزائغة ، أولئك لهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

وحتى لا تتداخل المفاهيم ، فإن فئة من المسلمين ، لم تتمذهب ، أي أنها ما زالت منذ عهد رسول الله محمد ، مع رسول الله محمد ، ثم دخلت إلى مدينة علم محمد من بابها ، الذي هو أمير المؤمنين علي ، هذه الفئة لم تشكل مذهباً بعينه ، وإنما هي مثلت دين الله الحنيف . كما مثلت وما زالت تمثل الركيزة التاريخية للأمة ماضيها وحاضرها ومستقبلها . فليتق الله أولوا الألباب في قاعدتهم وركيزتهم هذه ، وليعودوا إليها وإلى أصالة هذا الدين العظيم وليجاهدوا في سبيل الله ، يُسَامِحْهُمُ وَيَتُبْ عليهم الله إنه يحب التوابين ويحب المجاهدين في سبيله كأنهم بنيان مرصوص .

ر) غلو بعض السنة والتجسيم والجبر والإستجارة بغير الله.

ز) غلو بعض الشيعة ، والإنشغال عن التوحيد والإستجارة بغير الله .

س) التراخي في التوحيد أدى إلى الخلاف والخلاف أضعف الأمة .

ش) بعد التراجع عن التوحيد ، التراجع عن التشريع .

ص) سقوط الأمة .

ض) **حالتها الراهنة التي هي في الحضيض [1] .**

---

(1) أكثر من التخلف أيام ما يسمى بـ (عصر الإنحطاط) ما هو لاحق بالأمة الإسلامية اليوم . فلولا الثورة الإسلامية المظفرة في إيران وإقامة دولة إسلامية محفوظة مؤيدة من الله عز وجل ، لكانت الأمة الإسلامية تساوي صفراً أو تحت الصفر ، مقارنة مع دول القوة وحضارة الثورة الصناعية .

فدولة إسرائيل ، ضمن حدود فلسطين المعروفة ، والتي لا يتعدى تعدادها السبعة ملايين مواطن بما فيهم جميع المهاجرين المرتقب لحوقهم بها . هذه الدولة تتحكم بجميع الدول الإسلامية المحيطة بها ، حتى

والبعيدة عنها ، إما بالقوة العسكرية كما هو الحال في الشرق الأوسط . وإما بالغدر والدس والوقيعة وتأليب القوى المسيحية والوثنية ضد المسلمين في جميع أقطار الأرض . متعاونةً (أي إسرائيل) تعاوناً وثيقاً مع دول الحلف الأطلسي ، بقيادة القوة العظمى أمريكا . وقد أصبحت أمريكا عظمى فعلا (بالحسابات المادية) ، لا سيما بعد إنهيار الإتحاد السوفياتي ، الدولة التي كانت تستقطب ضد أمريكا أكثر من نصف العالم . ـــــــــــــــــــــــــ أما وقد سقط الإتحاد السوفياتي ، فقد بقيت القوى الرأسمالية متمثلة بأمريكا وأوروبا في الغرب ، وإسرائيل في الشرق ، أكبر قوى في الأرض ، لا ينافسها منافس ، ولا ينازعها منازع ولا يقف في وجه قراراتها وعدوانيتها أحد . والأوجع من ذلك كله ، أن هذه الدول وبقيادة أمريكا وبتوجيه حثيث وخبيث من دولة إسرائيل ، أخذت تعد الخطط والعدة ، لشن حرب ضروس على الإسلام كإيديولوجية منافسة لحضارتها وكعدو عالمي بديل عن الإتحاد السوفياتي . أما الدول الإسلامية في هكذا واقع ، فأحسنها حالاً ونخوةً وصموداً كأنما هي في حالة شلل ، لا حول لها ولا قوة ، بالكاد يمكنها الدفاع عن حدودها ، ولو دفاعاً انتحارياً مثل سوريا والجمهورية الإسلامية في إيران . أما بقية الدول ، فبعضها يدمّر تحت عين الشمس وعيون المسلمين ، مثل الأفغان والشيشان والعراق وفيما كان يسمى بيوغسلافيا . والدول التي لا تدمّر تداس بخطط النظام العالمي الجديد ونعال جنوده ، راضية غير مرضية ، ذليلة مستكينة ، تفضل على إخوانها في الله وإخوانها في الدين ، وحتى على أبنائها الذين ضمن حدودها ، تفضل جلاديها وسارقيها وشاربي دماء أبنائها تحت كل كوكب ، تفضل أعداء الله الصهاينة ، وعتاة الدول الغربية الحاقدة . وليس هذا فحسب ، بل هي (أي الدول الإسلامية) تزايد على أعداء الله في قتال وقتل المسلمين الذين تحكمهم وتتحكم بدمائهم . علما أن الدول الإسلامية هذه ، المتهالكة على سفاحيها ، الراكعة لمغتصبيها ، هي أغنى دول العالم قاطبة ، بالذهبين : الأسود النفطي ، والأصفر الذي يُكتشف جبلاً جبلاً ولا سيما في جهات نجد والحجاز .

هذا لون من ألوان الخزي التاريخي الدامغ لأكثرشعوب هذه الأمة . هذا الحال هو من مصاديق قوله عز وجل : { ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سورة المائدة الآية 23 } . هذا الخزي لاحق بالذين في قلوبهم زيغ وبالذين في قلوبهم مرض ، وهم من

القادة عشرات ، ومن المقودين ملايين ، على طول هذه الأمة وعرضها ، وفي جميع دولها وشعوبها .
الدواء ، هو التوحيد ، هو عبادة الله وحده ، وإطراح عبادة القادة الجزارين بأفكارهم وأفعالهم .
ـــــــــــــــــــــ الدواء ، هو التمسك بحبل الله المتين ، بكتابه وشرعه وتعاليمه .

الدواء ، هو الخروج من المذاهب الحاقدة ، إلى الأمة السوّية التي قال فيها سبحانه : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ . سورة آل عمران الآية 110}.

الدواء ، هو حب الله ملء القلوب وجمامها ، حتى إذا طفحت بحب الله ، كان الحب لازماً لرسول الله محمد ولأهل بيته الذين أمر الله لا ببغضهم وببغض تابعيهم ، ولا بالحقد على أنصارهم أنصار الله ، ولا بقتلهم وسَبْيهم كما فُعِلَ في كربلاء ، ولكن أمر سبحانه بمودتهم وطاعتهم وتوليهم بعد الله ورسوله .

إذا اتجه مفكرو الأمة وعلماؤها هذا الإتجاه ، ونبذوا الزيغ وأمراض التمزق والحقد وعصيان الله وتأويل المتشابه من كتابه تأويلاً فيه الجنف والبغي والإنحراف عن صراطه المستقيم ، إذا فعلوا كل ذلك ، فليبشروا بالنجاة ، نجاتهم كأفراد ، ونجاتهم كأمة وعدها الله بميراث الأرض والنصر وبالفتح المبين .

{ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . سورة الحج الآية 40 } .

فـ { يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُونُو أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ لِلحَوارِيينَ مَنْ أَنْصَاري إلَى اللهِ قَالَ الحَوارِيونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائفَةٌ مِنْ بَني إسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدنَا الّذينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوهمْ فَأَصْبَحُوا ظَـاهرين . سورة الصف الآية 14 } .

و { الَّذِينَ فِي قُلُوبهِمْ زَيْغٌ } وقفوا من الشيطان مثلا مواقف مختلفة كلها خاطيء . منها أن بعض فقهاء بني أمية ثم بني العباس ، وغيرهم ، إلى يومنا هذا ، كانوا وما زالوا يصورون لأنفسهم وللحكام ، أنهم ما داموا مسلمين ، فليس للشيطان عليهم سلطان ، مستدلين بقول الله تعالى مخاطباً إبليس لعنه الله ، في هذه الآية وأمثالها من المتشابه .

{ إنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى برَبكَ وَكيلاً . سورة الإسراء الآية 65 } .

ومنهم الذين يلقون المسؤولية كلها على الشيطان ويبرئون منها أنفسهم .

ومنهم من تزلزل إيمانهم وأخذوا يتساءلون لماذا خلق الله الشيطان ، ولماذا سلَّطه على الإنسان يوقعه في المعاصي ويضله الضلال المبين ، حتى أن بعضهم اعتبره مظلوماً مجنياً عليه ، وكتبوا في ذلك الكتب ، وليس آخرها كتاب (دفاعاً عن الشيطان) ، وآخر صدر حديثاً يدافع فيه عن سليمان رشدي وكلاهما لصادق جلال العظم .

أما الآية الكريمة { إنَّ عِبَادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ...} التي أوّلوها ابتغاء الفتنة ، فتنة أنفسهم ، وفتنة الآخرين ، فتأويلها الصحيح غير ذلك ، ان قوله تعالى فيها : { عبادي } يعني : أهل طاعتي .

إذن أهل طاعة الشيطان هم هؤلاء الذين في قلوبهم زيغ على اختلاف تفكيرهم واعتقاداتهم . هم الذين كان الله سلَّط

الشيطان عليهم . ثم رفع سلطانه عن الجميع في هذا العصر ، ومع ذلك لم ترتفع المعاصي من الناس في جميع أقطار الدنيا .

وهذا يعني أن وجود الشيطان وعدمه سواء .

أما لماذا خلق الله الشيطان ؟ فلأن ذلك في جملة خلق الأضداد . لتتحقق المشيئة بين عناصر الخير والحق والجمال من جانب وبين عناصر الشر والباطل والقبح من جانب آخر . ولولا التضاد بين الموجب والسالب ، لما انقدحت شرارة الحياة ، ولا نورانية الإيمان ولا حرارة الحب .

أما حكم الله عز وجل في هؤلاء وأولئك من الذين { فِي قُلُوبهِمْ زَيْغٌ } فقوله جلت حكمته : { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ } [1] وبديهي أن من يزغ الله قلبه ، يضلِّه ، { وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لهُ مِنْ هَادٍ }[2] وكذلك قوله عز شأنه :

{ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرنـَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ }[3] سواء كان من الإنس أو الجن { فَبأيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تكَذِبَانِ } [4] .

ومن الأدلة على أن الزائغين هم من المسلمين أصلا، كونه سبحانه ضمّن هذه الدلالة فيما علّمنا أن ندعوه به :

---

(1) سورة الصف الآية 5 .
(2) سورة الرعد الآية 33 .
(3) سورة سبأ الآية 12 .
(4) سورة الرحمن .

{ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ } [1] .

أما قولـه تعالى : { ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ } في الآية موضوع بحثنا ، ففيه تضمين [2] واضح حيث يصبح معناها : فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويل المتشابه تأويلاً فاسداً من عند أنفسهم .

---

(1) سورة آل عمران الآية 8 .

(2) التضمين (اصطلاحاً) أن يكون في عبارة ما ، معنى أو معان تتجاوز الكلمات التي في هذه العبارة . وهو في القرآن كثير . فعلى سبيل المثال ، قوله تبارك وتعالى : { للهِ مُلْكُ السَمَواتِ وَالأرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلىَ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ } . آخر سورة المائدة .

والمعنى الزائد على الكلمات . والذي هو ضمن العبارة استنتاجاً ، أنه سبحانه وتعالى ليس له ملك السموات والأرض وما فيهن فقط ، بل وما بينهن كذلك .

وقوله تعالى في أول سورة الأنعام : { الحَمْدُ للهِ الَّذي خَلَقَ السَمَوَاتِ وَالأرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَـٰتِ والنُّور ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا برَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } . والتضمين فيها ، أنه خلق كذلك ما فيهن وما بينهن ، وخلق كل شيء و { يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ . سورة فاطر الاية 1 } .

وقوله تعالى : { يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ . سورة الأنعام الآية 3 } . والتضمين أنه يعلم ما بين أيديكم وما خلفكم ويعلم ما تخسرون ، وهو بكل شيء عليم .

وقوله تعالى : { وإذَا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بمَا ضَرَبَ للرّحْمَـٰن مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظيم . أوَ مَنْ يُنَشَّؤُا في الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَام غَيْرُ مُبينٍ . سورة الزخرف الآيات 17 - 18 } .

والتضمين بين الآيتين ، بمعنى أن يصبح السياق مثلاً هكذا : ... ظل وجهه مسوداً وهو كظيم فيعترض غاضباً قائلاً في نفسه أو مجاهراً بقوله : { أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَام غَيْرُ مُبين } ، يعني الأنثى ، بخلاف الذكر الذي ينشّأ في الخشونة وعلى الخصومة والتدريب على القتال .

وقوله تعالى : { وأنَّ الّذينَ لا يؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ أعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيمَا . سورة الإسراء الآية 10 } والتضمين فيها ، هو العنصر الأول والأساس للإيمان وهو شهادة أن لا إلـه إلا الله ثم عنصر ثالث للإيمان المقبول هو عمل الصالحات ، وليس قبل الآية في السورة ما يشير إلى هذين الشرطين . فالتضمين إذن في هذه الآية هو التوحيد وعمل الصالحات إضافة للإيمان بالآخرة ، ويحصل ذلك عن طريق الإستنتاج .

وقوله سبحانه : { مَثَلُ الجَنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أنْهَارٌ ... كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّار ... سورة محمد الآية 15 } . والتضمين فيها عند قوله تعالى كمن هو خالد في النار ... أي كمن كفر أو أشرك أو عاند أو أصرّ على كبار المعاصي لؤماً واستكباراً فهو خالد في النار ، هل يستويان هذا في جحيمه والتقيّ في نعيمه .

وقوله عز وجل : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ حَتَّى إذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلّذينَ أوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً . سورة محمد الآية 16} . والتضمين فيها ، بعد (يَسْتَمِعُ إلَيْكَ) و (مَاذَا قَالَ آنِفاً) ، فيصبح المعنى تقريباً : ومنهم من يستمع إليك متظاهراً

ـــــــــــــــــــــ بالجد والإحترام ، وهو شأن المنافقين ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا مستهزئين (مَاذَا قَالَ آنِفاً) أي أن ما كان يقوله رسول الله (ص) لا

يعجبهم وليسوا به مقتنعين ، إضافة إلى ما يحمِّلون كلامهم من الهزء والسخرية .

وفي سورة الصافات قوله تعالى ، آية 136 - 137 في الكلام عن تدمير قوم لوط : { ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرينَ . وَإنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبحين . وباللَّيْلِ أفَلاَ تَعْقِلُون } قوله تعالى : (إنكم لتمرون...) فيه إطلاق يعني جميع المخاطبين ، وهو محال ، فينبغي أن يكون التضمين : بعضكم وليس جميعكم .

هذا بخصوص (التضمين) ، ونكتفي بهذه النماذج ، على أن في القرآن المجيد مئات الآيات تتضمن معاني تتجاوز الحروف والكلمات ، وذلك من جملة مدهشات هذا المعجز العظيم الذي هو القرآن ، كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثانياً : معنى قوله تعالى :{ وما يعلم تأويله إلا الله}

إذا كـان الله سبحانه وتعالى يعلم لغات الخلق وأشياء الكون ، ما ظهر منها وما خفي ، من أصغر جزيء في الذرَّة إلى أعظم جرم في الكون إلى الكون كله .

وهو سبحانه يعلم مَنْ خَلَق ، ويعلم في المخلوقين أفكارهم وتأويلها قبل أن تصدر وتتشكل ، وهذا معنى قوله تعالى: { إِنَّهُ عَليمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . سورة الملك الآية 13} أي المصادر . ثم بديهي أن يعلمها بعد ذلك وهي في طور الرمز قبل أن يؤولها المخلوق ويخرجها شكلاً أو قولاً أو كتابة، قوله تعالى :

{ وَأسِرُّوا قَوْلَكُم أوْ اجْهَرُوا بِهِ إنَّهُ عَليمٌ بذَاتِ الصُدُورِ . ألاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ . سورة الملك الآية 13 - 14 } .

فهو سبحانه يعلم تأويل كل شيء تأويلاً دفعياً أزلياً أبدياً، ومن ذلك تأويل متشابهات القرآن التي هو سبحانه أنزلها على قلب رسوله محمد (ص) ، يعلمها سبحانه كما يعلم المؤولين وما يؤولون من مقدمات الفكرة قبل أن تتبلور عند المفكر ، إلى المفكر قبل أن يؤول هو فكرته ، إلى التأويل وهو مستبطن ، إلى التأويل في ظهوره :

{ ألاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبيرُ }

ذلك بعض معنى قوله تعالى : { وَمَا يَعْلَمُ تَأويلهُ إلاّ اللهُ}

أما نسبة علمه سبحانه إلى علم الراسخين ، كنسبة كرمه إلى الأكرمين من الناس ، أو نسبة قوته إلى الأقوياء ، أو نسبة نوره إلى المستنيرين به ، أو حلمه إلى الحلماء ، أو غناه إلى الأغنياء ، أو رحمته إلى الرحماء ، أو حكمته إلى الحكمـاء إلخ

... وهي نسب ليس لها قياس ، لاستحالة قياس المحدود بالمطلق ، وهذا من معاني قوله عزت عظمته :

{ وَلهُ المَثَلُ الأعْلىَ فِي السَمَوَاتِ وَالأرْضِ[1] وَهُوَ العَزيزُ الحَكِيمُ . سورة الروم الآية 27 } .

---

(1) قال عزت عظمته : { مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلـٰـهٍ إذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إلـٰـهٍ بمَا خَلَقَ . سورة المؤمنون الآية 91 }

فشرط الإلـٰـهية الخَلْقُ . وقد يدَّعي مخلوق أنه يخلق صورةً، تمثالاً ، بنايةً ، مدينةً نفقاً في جبل ، مركبةً فضائية ، قمراً اصطناعياً ، فبصرف النظر عن كونه يخلق اعتماداً على مواد ونواميس خلقها الله ، فهو لا يمكنه أن يخلق كما خلق الله وكما يخلق الله : هذا الكون الذي حارت الألباب في بداياته ونهاياته إذا كان له نهايات . كما حارت في كل خليقة على حدة ، من الذّرة إلى المجرة . والله عز وجل يدعوهم إلى التأمل والتفكر في خلقه ، ثم يقول سبحانه متعالياً متكبراً ، متعززاً بالقدرة والهيمنة والبقاء :

{ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأروني مَاذَا خَلَقَ الّذينَ مِنْ دُونِهِ . سورة لقمان الآية 11 } ولكي يكون الإلـه إلـهاً حَقّاً ، ينبغي إضافة إلى خالقيته أن تكون له الأسماء الحسنى والأمثال العليا . وقد نبه سبحانه إلى بعض الظاهري في قوله عز وجل :

{ هُوَ اللهُ الذي لا إلَـهَ إلاّ هُوَ عَـٰلِمُ الغَيْبِ والشَّهَـٰـدَةِ هُوَ الرَّحْمـنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللهُ الَّذي لا إلَـهَ إلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللهُ الخَـٰـلِقُ البَارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبحُ لَهُ مَا في السّمَـٰـوَات والأَرْضِ وَهُوَ العَزيزُ الحَكِيمُ . سورة الحشر الآيات 22 – 24 } .

فأي بشر أو حجر أو مخلوق مزعومة إلآهيته ، أو مُدَّعَى إلـٰهاً ، يمكن أن يكون له شيء من هذه الأسماء التي لا يستطيع أن يحتمل منها ولو إسماً واحداً مع المثالية العليا لهذا الإسم ؟ أي مخلوق ، مهما عظم ، في هذا الكون الواسع الفسيح ، العريق العميق ؟

وفي قوله عزت عظمته : { لَهُ المَثَلُ الأعْلَى فِي السَّمَـٰوَات ِ والأرْضِ ... } أي المثل الأعلى مع كل إسم حسن ، لأنه وحده { لَهُ الأسْمَاءُ الحُسْنَى ـ سورة الحشر الآية 24 } وهذه الآية تماثل تلك { لَهُ المَثَلُ الأعْلىَ } ، وهاتين تماثلان قوله عز وجل : { لاَ إلـَهَ إلاَّ اللهُ . سورة محمد الآية 19 } .

فآية { لَهُ المَثَلُ الأعْلىَ } فيها إطلاق ، أي له المثل الأعلى دون أن يَحُدَّهُ حَدٌّ .

و { لَهُ الأسْمَاءُ الحُسْنَى } ، أي كل إسم حسن ، كذلك إطلاقاً ودون حدود . و { لا إلـه إلا الله } نفي للآلهة من دونه . وحده الإلـه الحق .

أما أن يسمّوا أي شيء أو مخلوق من دونه إلـهاً ، فذاك ظن ، أو زعم ، أو اشتباه ، أو شرك ، أو كفر منهم لإلآهيته الحقة التي لا إلآهية اطلاقاً سواها .

وكلمة { مَثَل } هي عينها { مِثْل } وهو سبحانه { ليس كمثله شيء . سورة الشورى الآية 11 } أي ليس مثله شيء ، ولـه المثل

الأعلى ، فأيما مخلوق في الوجود ، إذا كان لا بد من قياسه أو مقارنته مع عزة الله ، فيكون قياس المحدود بالمطلق . فكل علم هو جهل نسبي بالنسبة إلى علم الله ، فما كان فيه من حقائق فهي من علم الله . وكل قوة هي ضعف مقارنة مع قوة الله ، وكل عظمة هي هوان أمام عظمة الله ، وكل سلطان هو محكوم بسلطان الله . وكل غنى هو فقر إلى غنى الله ،

وكل كِبْرٍ هو حقارة أمام كبرياء الله ، إلى آخر ما يعلم الإنسان وما لا يعلم ، من مقارنات أسمائه الحسنى وأمثاله العليا سبحانه وتعالى عما يصفون .

ثالثاً : معنى قوله تعالى :

{ وَمَا يَعْلَمُ تَأويلَهُ إلاَّ اللهُ والراسِخُونَ في العِلْم }

إن الرسوخ في العلم واجب كفائي ، يخلق له الله سبحانه ويختار من يشاء من عباده ، ويعلمهم العلم ويعينهم عليه :

{ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالىَ عَمَّا يُشْرِكُون . سورة القصص الآية 68 } .

وإنّ تعلّم العلم من الراسخين واجب عيني ، يؤاخذ على تركه أو التقصير فيه كل مكلَّف .

ومنذ القرآن الكريم ، يعتبر أول وأعظم وأوجب مصدر للعلم بعد الله جلّت عظمته ، هذا القرآن وما فيه من آيات بينات .

والمطلوب في مواجهة الآيات البينات ، سواء من الراسخين أو المتعلمين ، أولاً ـ التصديق بها ، وثانياً الإحاطة بعلم ما فيها نظراً وعملاً .

ويُؤاخَذُ الراسخون بالإخلال بأحد الأمرين ، وهو قول الله تعالى فيهم :

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَـٰهُ آيَـٰتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلىَ الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ

كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَٰلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَـٰتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الأعراف الآيات 175 ـ 176 } .

ويؤاخذ العوام بترك تعلمها من العلماء الصادقين المؤيَّدين من الله عز وجل ، إذا أخلّوا كذلك بأحد ركنيها : وهما التصديق والتطبيق نظراً وعملاً [1] .

(1) أي التصديق والتطبيق نظراً وعملاً بآيات القرآن الكريم تفصيلاً ، وبجميع ما بين دفتي هذا الكتاب المجيد إجمالاً . على أنه تنزيل من رب العالمين ، وعلى أنه كلام الله وكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي هو تبيان لكل شيء . فمن ارتاب بشيء منه فقد كفر. كالذين يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعض ، ولعل ثلاث آيات كريمة في سورة آل عمران ، مفصلة تفصيلاً مذهلاً ، تتغلغل إلى أعماق المنافقين ، وتفضح أدق نواياهم ، لعلها تكفي بما تلقي من الضوء على هذين المقصدين : التصديق والتطبيق نظراً وعملاً . وكيف أنه هو سبحانه يعلمنا النظر ويعلمنا العمل ما دمنا في طاعته وحبه ، ويكملنا بهما الكمال الإنساني بين مجاهدتنا أنفُسَنَا وأعداءَنَا أعداء الله ، وبين ترقِّينا إلى عليين حيث منازل الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء . هذه الآيات هي قوله تعالى ، في الآية 118 من سورة آل عمران :

{ يَـأيُهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بطَانَةً مِنْ دونِكُمْ لا يألُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا ماَ عَنِتُّم قَدْ بَدَتْ البَغْضَاءُ مِنْ أفْوَاههمْ وَمَا تُخفي صُدُورُهُم أكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيـاتِ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ }.

وما أعظم هذا التعليم ، وهذه الكشوفات النفسية ، فيمن نحسبهم أصدقاء بينما هم من ألَدِّ الأعداء .

وما العمل معهم يا ربنا يا ذا الجلال والإكرام ويا أرحم الراحمين؟ العمل ، هو في قوله عزت عظمته ، بعد هذه الآية مباشرة ، متابعاً الكشف

عن نفوس هؤلاء ، ومتابعاً سبحانه تعليمنا سلوك الصراط السوي الذي لا سقوط معه ولا جنوح ولا انحراف ، أبداً نحن في الضوء ، ما دمنا من الصِدِّيقينَ والمطيعين الأبرار . قوله عز شأنه :

{ هَـٰأَنْتُم أولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بالكِتـٰبِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بذَاتِ الصُدُورِ آل عمران الآية 119}.

في هذه الآية بيَّنَ لنا سبحانه ارتيابهم بقِسْمٍ من القرآن ، وربما بالقرآن كله ، ذلك عند قوله تعالى { وتؤمنون بالكتاب كله } والتضمين هو أنهم هم لا يؤمنون بالكتاب كله ، كما أَطْلَعَنَا كذلك على أحاسيسهم ومشاعرهم ، ومدى غيظهم من الصِدِّيقين أهْلِ القرآن الكريم ، لدرجة أنهم يعضون أناملهم من شدة غيظهم على المؤمنين الصديقين ، حيث أنه سبحانه حفظهم وثبتهم ودفعهم عنهم فلا يستطيع هؤلاء المنافقون النيل منهم لا باليد ولا باللسان . وهنا علَّمنا تبارك وتعالى كيف نقابلهم سلوكيا ، فلا بالغضب ولا بالحزن وتوتر الأعصاب وإنما { قل مُوتُوا بغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بذَاتِ الصُّدُور } .

كما أطْلَعَنَا سبحانه على أعمق نواياهم على المؤمنين الموقنين :

{ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بهَا وإِنْ تَصْبروا وتتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُم شَيْئاً إِنَّ اللهَ بمَا يَعْمَلونَ مُحيطٌ . سورة آل عمران الآية 120 } .

وكذلك أمرنا عز سلطانه ، أن نرتب على هذا الإطِّلاع موقفاً آخر وسلوكاً مناسباً له وهو قوله تعالى { وإِنْ تَصْبروا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بمَا يَعْمَلونَ مُحيطٌ } . والحمد لله رب العالمين .

وذلك قول الله تعالى فيهم :

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىَ إذَا جَاؤُوا قَالَ أكَذَّبْتُمْ بآيـٰتي ولَمْ تُحيطُوا بهَا عِلْماً أمْ مَاذَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ . سورة النمل الآيات 83 ـ 84 } .

وفي هذه الآية الأخيرة : { حَتَّىَ إذَا جَاؤُوا قَالَ ... } فيها ثلاثة معاتب مع الإستفهام الإستنكاري . وكلها مبطن بالوعيد والتخليد في النار ، كما في الآية التي قبلها { وَيَوْمَ نَحْشُرُ ... } .

المعتب الأول ، قوله تعالى : { أكَذَّبْتُمْ بآيـٰتِي } وهذا كافٍ كدليل دامغ على الكفران .

المعتب الثاني ، قوله تعالى : { وَلَمْ تُحِيطُوا بهَا عِلْماً } ، ومن عدم الإحاطة : الجهل بوجودها ، ولا تصديق مع الجهل ولا تكذيب . ومن عدم الإحاطة أخذ العلم بها مقروناً باللامبالاة . ومن عدم الإحاطة المبالاة بها ولكن معها عدم التدبر والفهم وعدم السؤال عن التأويل .

المعتب الثالث ، قوله تعالى : { أمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، وهذا السؤال من مقام عزته وغضبه سبحانه ، فيه الداهية الدهياء : { مَاذَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، ماذا كنتم تقرأون بعيداً عن القرآن وآياته ؟ فكراً عالمياً ؟ آداباً ؟ علوماً إنسانيةً ؟ عشراتِ الكتب ، مئاتِ الكتب ، بعيداً عن القرآن ، عن كلام الله عز شأنه ، وجلَّت عظمته ، كل ذلك والقرآن مهمل ، كل ذلك والقرآن مهجور . { مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ؟ كَسْبُ العيش ؟ صحبة المرموقين من أهل الدنيا ، صحبة السوء ؟ المِهَن ؟ الإقتصاد ؟ الإستغراق في الدنيا حتى الغرق . ولا اهتمام بكتاب الله ، رغم أنه ليس في الأرض ولا تحت هذه السماء الزرقاء كتاب عزيز منزل غيره لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . **وصدق الله العليُّ العظيم** قوله :

{ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَسُولِ سَبيلاً . يَـٰوَيْلَتى لَيْتَني لَمْ أتَّخِذْ فُلاَناً خَليلاً . لَقَدْ أضَلَّنِي عَنِ الذِّكْر بَعْدَ إذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيطَـٰنُ لِلإنْسَانِ خَذولاً . وَقَالَ

الرَّسُولُ يـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمي اتَّخَذُوا هَذَا القُرآنَ مَهْجورَا . سورة الفرقان الآيات 27 – 30 } .

{ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر }[1]

القرآن بين أصالة العربية والترجمة :

وبنعمة منه ورحمة للعالمين ، جعله عربياً ، أي واضحاً جلياً صافياً مشرقاً [2] ، إضافة لكونه باللسان العربي المتعارف بين لغات أهل الأرض . وهو سبحانه علَّم اللغات ، وهو تبارك وتعالى أدرى بالأفضل منها والأحسن والأسمى والأرقى . ففي حديثٍ سئل رسول الله (ص) : أي المعارف القرآنية ذات شرف وفضيلة أكثر ؟ أجاب (ص) : عربيتها ، وابحثوا عنها في الشعر . ومن هنا نفهم مدى إهتمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بوضع قواعد النحو للغة العربية ، مكلِّفاً بذلك ذاك الألمعي ، أبا الأسود الدؤلي ، بوضع الأسس في علم النحو مُشْرفاً عليه السلام على عمله كلِّه ، موجِّهاً وموثِّقاً ، ومن هذا الأساس

كان فيما بعد ، إعراب القرآن ، وتبعاً لذلك وضع حركات الإعراب ، وبعدها نقط الحروف المعجمة فيه ، وكل ذلك كان سبباً مهماً ، في قراءة وفهم القرآن الكريم خاصة ، وحفظ اللسان العربي عامة ، وذلك بفضل الله عز وجل وتدبيره وعنايته ورعايته .

ومن ثم يجب أن نوقن أن أيَّة ترجمة للقرآن الكريم ، لن تغني شيئاً عن الحق والحقيقة والأسرار ، والطاقات التي تحملها (شيفرته) ورموزه وآياته ، ولا سيما ما يسمى بمفاتيح السور ، أو الأحرف النورانية ، أو المثاني كما سنعلم بعد قليل ، بإذنه تعالى في هذا البحث ، فهي قطعاً تخرج بالترجمة عن نورانيتها،

---

(1) سورة القمر الآيات : 17 و 22 و 32 و 40 .
(2) أنظر كتابنا (العقل الإسلامي) .

كما تفارقها ، معانيها السرية وفاعلياتها . وتصبح كالجثة بلا روح ، أو كإنسان حي سوي بدلت أعضاؤه الرئيسة كالقلب والدماغ ، أو بدلت جوارحه الأصلية بأدوات اصطناعية ، بما يخرجه إخراجاً كبيراً عن خلقته السوية التي خلق بها .

وعلى هذه فقس ما سواها بالنسبة لبقية آيات القرآن الكريم التي شاءها الله هكذا محكمةً شكلاً ولفظاً وتركيباً ومعاني وباللغة العربية .

أمُّ الكتـــاب :

هذا من وجه في قوله تعالى : { إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبياً . سورة الزخرف الآية 3 } ومن وجه آخر إنَّه أي القرآن { وَإنَّهُ فِي أمِّ الكِتـــابِ لَدَيْنَا لَعَليٌ حَكِيمٌ . سورة الزخرف

الآية 4 } ، فيجب أن نفهم ما { أُمُّ الكِتـٰـبِ } وما { عَلِيٌّ حَكِيمٌ } .

ففي اللغة العربية ، أمّ كل شيء رأسه وأصلُه ، فأم الكتـٰـب إذن ، هي الأصل ، الذي فرق عنه الكتـٰـب ، وهو المصحف الموجود عندنا بين الدفتين . وفيه **المحكم والمتشابه والمثاني والقرآن العظيم .**

وإن كل ما صدر عن { أمِّ الكِتـٰـبِ } ، إنما صدر بقدر الله وقضائه السابق على إهباط الإنسان إلى الأرض واستخلافه فيها . ثم أتبعه بالتعاليم تدريجاً ، { لِكُلِّ أمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوه . سورة الحج الآية 67 }. تلك هي الشرائع المتفاوتة ، بدءاً بمرحلة بهيمية الإنسان (نتيجة للعقوبة بصدمة الإهباط وغربة المستقر) ثم وعده بشريعة مفصلة مسعدة ، في قوله تبارك وتعالى :

{ ... فَإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى . وَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْري فَإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمى وَقدْ كُنْتُ بَصيراً . قَالَ كَذَلِكَ أتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى . سورة طه الآيات 123 - 126 } .

ثم ضبطاً لمناهج المجتمعات البشرية بين مبدأ الإنسان ومعاده اختص نوحاً بشريعة بدوية ، وإبراهيم بشريعة إجتماعية رعوية وموسى بشريعة كملت سابقتيها ، وعيسى : " إنَّمَا بُعِثْتُ لإكمِّلَ الناموسَ لا لأنقُضَهُ " . ومحمداً عليهم وعليه السلام

بشريعة الإنسان المدني العالمي { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } .

وكل شريعة من هذه الشرائع ، هي **فرقان** من **أم الكتـٰـب** ، وبكلمة أخرى ، هي مجموع الأحكام التي عُمِلَ بها في النشأة الأولى ، ثم وزعت توزيعاً عادلاً ورحيماً على مراحل البشرية بعد الإهباط .

من هم الراسخون في العلم ؟

الراسخون في العلم مرتبة ثانية بعد مرتبة رسول الله وأهل بيته (ص) . فالراسخون هم ورثة الكتاب ، وهم كذلك معصومون، وإنما عصمتهم نسبية كما سنرى في الآية الكريمة ، وهم الذين عناهم الله تبارك وتعالى بقوله :

{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتـٰـبَ الَّذينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبيرُ . جَنَّـٰـتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيْهَا حَرِيرٌ . وَقَالوا الحَمْدُ لِلهِ الذي أَذهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَّغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ولاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . سورة فاطر الآيات 33 - 35 } .

وورثة الكتاب هؤلاء [1] ، أو الراسخون في العلم ، هم الصفوة من علماء المسلمين ، هم الذين يصطفيهم الله سبحانه لكل عصر ولكل جيل ، إلى قيام الساعة . وهؤلاء هم الذين تركوا وسيتركون بصماتهم واضحة جلية في علوم القرآن الكريم بوجه خاص ، وفي بقية العلوم الدينية بوجه عام ، كل منهم في حقل الإختصاص الذي يسّره الله سبحانه إليه ، ولربما كلف بعضهم بأكثر من حقل علمي واحد . ومن هذه الحقول العلمية والإجتهادية : التفسير والتأويل .

---

(1) عن السجاد عليه السلام أنه قال : لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : إن من أحبِّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله في نفسه ، فاستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه . إلى أن قال : قد خلع سرابيل الشهوات وتخلى من الهموم ، إلا هماً واحداً إنفرد به . فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ، ومغاليق أبواب الردى ، قد أبصر طريقه ، وملك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره ، واستمسك من العُرى بأوثقها ، ومن الحبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس .

من كتاب الحقائق في محاسن الأخلاق للفيض الكاشاني قدس سره . ص 10 ـ ط : دار الكتاب العربي .

وإذا كان تفسير القرآن الكريم شائعاً ومتعارفاً عند العلماء أولي الخبرة في أدوات ومفاتيح هذا العلم ، فذلك لأن التفسير يعتمد ظاهر القرآن وظواهر آياته [1] ، مموّلاً بذلك تاريخ الفقه ودراساته وبحوثه بتوضيح نصوص التشريع مُعَوّلاً على حجّية الظاهر فاتحاً أبوابه الوسيعة لإجتهاد المجتهدين واستنباط الأحكام من مصادرها الإلـٰهية .

---

(1) ورد في كتاب قرة العيون لمؤلفه العلامة المحدث الشيخ محمد بن مرتضى ص 446 ما يلي :

" فالتأويل يجري مجرى التعبير ، فالمفسر يدور على القشر ، ولما كان الناس إنما يكلمون على قدر عقولهم ومقاماتهم ، فما يخاطب به الكل يجب أن يكون للكل فيه نصيب . فالقشرية من الظاهريين لا يدركون إلا المعاني القشرية . كذلك ينظرون إلى الإنسان ويقفون عند قشره وهو ما في الاهاب أو البشرة من البدن ، فلا ينالون إلا قشر تلك المعاني وهي ما في الجلد والغلاف من السواد والصور .

وأما روحها وسرّها وحقيقتها فلا يدركها إلا أولوا الألباب ، وهم الراسخون في العلم ، وإلى ذلك أشار النبي (ص) في دعائه لبعض أصحابه حيث قال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل . ولكل منهم حظ

قلّ أو كثر ، وذوق نقص أم كمل ، ولهم درجات في الترقي إلى أطوارها وأغوارها ، وأسرارها وأنوارها .

الفصل بين المحكم والمتشابه :

مما تقدم ، يمكن فهم الفرق بين المحكم والمتشابه في القرآن ، أي (الكتـاب) ، وبين العام والخاص ، وبين الناسخ والمنسوخ ، الخ ... فان **المحكم والعام والناسخ** ، أمور وأحكام هي (أم الكتـاب) ، وهي للنشأتين : للناس في الجنة قبل الإهباط ، وللناس في الأرض بعد الإهباط [1] .

وأما المتشابه والخاص والمنسوخ ، وما شاكل ، فهي أمور متعلقة بخصوصيات هذه الأرض الدنيا ، وخصوصيات أهلها بعد الإهباط ، ولله في خلقه شؤون .

وفي رأس المتشابه ، تلك الأحرف النورانية أو المثاني ، وقد اختص الله سبحانه ، بسبع منها [2] ، رسوله محمدا (ص) مع القرآن العظيم ، قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَـاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالقُرْءَآنَ العَظِيمَ . سورة الحجر الآية 87 } وقد يختص غيره في الغابر والحاضر . ومن وجوه أسرارها العليا أنها من أسماء الله الحسنى ، ويختص الله بها من يختصه من عباده ، بعد أن يفنى في فنائه وحبه ، ثم يبعثه الله [3] وقد أصبح في الحياة الدنيا مؤهلاً لذكره عز شأنه بهذه الأسماء العاليه ، أو الثناءات أو (المثاني) كما سماها في القرآن الكريم . وذلك بترتيب لها

وطريقة ، يستحيل على الناس التوصل إليهما ، إلا بتوفيق وهداية منه سبحانه وتعالى عما يشركون .

---

(1) أنظر كتاب (العقل الإسلامي) للمؤلف .

(2) شرحناها في مكان متقدم من هذا البحث ، عندما شرحنا حرف (من) في الآية الكريمة : { وَلَقَدْ آتَيْنَـٰكَ سَبْعاً مِّنَ المَثَانِي وَالقُرْءَآنَ العَظِيمَ . سورة الحجر الآية 87 .

(3) هو (الصحو بعد المحو) بلغة أهل العرفان .

وسنذكر لاحقاً إن شاء الله ، بعض ما يمكن ذكره ، من بقية شؤونها ، و أغراضها وأنبائها الجليلة .

وفي رأس المحكم آيات التشريع .

فإذا نحن استطعنا أن نحدد آيات متشابهات ، كانت سبباً للفتن الداميات المدمرات لهذه الأمة ، نكون من جهة قد جعلناها نموذجاً عملياً لأكثر المتشابهات ، التي اتبعها وما زال يتبعها الذين في قلوبهم زيغ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها تأويلاً يحكمه السفه والضلال وهوى الأنفس . ومن جهة ثانية ، نكون قد فتحنا باباً واسعاً على فردوس بحث من فراديس القرآن ، غني بأنهاره وأطياره ، وكل خير وكل جميل .

وعلى هذا الأساس ومع جلاء آيات التشريع المحكمات ، يتضح القسم الكبير الثالث من القرآن المجيد ، الذي لا هو محكم ولا متشابه ، وهو يشمل في جملة ما يشمل ، القصص والفلك والأمثال ، وغير ذلك من مواضيع هذا الكتاب المعجز الزاخر بالعظائم ، والذي لا تنفذ مناجم لؤلؤه ولا ينابيع أنواره .

فمن الآيات المتشابهات حمالة الوجوه التي أراد الله بها شيئاً فألبسوها نقيضه :

(1) آية { إنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرجْسَ أهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيرَا . سورة الأحزاب الآية 33 } .

أراد الله بها محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم فذهبوا بها إلى نسوة أغضبن الله ورسوله إلى أبد الآبدين وأولوها ابتغاء الفتنة ، واتّبعوها ابتغاء تأويلها [1] تأويلاً معلناً فيه العصيان لرب العالمين .

---

(1) هذه الآية الكريمة { إنَّمَا يُريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرجْسَ أهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيرَا } وقع تأويلها في بيت أم سلمة إحدى زوجات الرسول (ص) . وقد ورد في ذلك ما ينوف على أربعين حديثاً عن طريقي السنة والشيعة ، أكثرها عن طريق السنة ولا سيما في صحاحهم . وجميع هذه الأحاديث تؤكد حقيقة واحدة هي أن هذه الآية الكريمة نزلت في بيت أم سلمة بعد أن استدعى رسول الله (ص) عليا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجمعهم تحت كساء وبشكل ملفت قصد منه أن يبقى حدثاً تاريخياً له أبعاده ومراميه وعبره ، مما جعل أم سلمة رضوان الله عليها ، وهي تراقب بدهشة هذا الحدث ، تطمع بمزيد من الخير ، فتسأل النبي (ص) : أأدخل معكم يا رسول الله ، فيجيب (ص) ، " لا يا أم سلمة أنت على خير " أو كما قال (ص) .

فما دام الأمر كذلك ، فلماذا أسقط هذا الحدث عمداً ، وأسدل عليه الذين في قلوبهم زيغ ستائر وحجبا ، ليقولوا إنما المراد بأهل البيت ليس أهل بيت النبي هؤلاء ، وإنما ... وكثرت الإفتراضات عندهم ، وكلها تصب في مصب واحد ، هو ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويل الآية الكريمة المشهورة هذه ، تأويلاً فاسداً فيه رد على الله سبحانه وفيه المعصية الغموس .

(2) آية المباهلة في قوله تعالى : { الحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ المُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَىَ الكَاذبينَ . سورة آل عمران 60 _ 61 } .

جعلها الله عز شأنه حكرا على الحسنين ممثلين لأبناء الأمة ، وعلى فاطمة ممثلة نساء الأمة ، وعلى عليّ ممثلاً نفس محمّد (ص) ومحمّد ممثلاً نفس الأمة [1] .

فأولوها ابتغاء الفتنة ، وذهبوا فيها المذاهب ، كحاطب ليل وكخابط خبط عشواء .

---

(1) ومختصر التأويل الحق لهذه الآية الكريمة ، هو أن وفداً من نصارى نجران ، على رأسه كهنة الكنيسة التي كانت تمثل نصارى شبه الجزيرة العربية آنذاك وعلى رأس هؤلاء الكهنة كبيرهم (العاقب) ، وفدوا على رسول الله محمّد (ص) بعدما ملأت أخباره الآفاق ، أتو مستفسرين مستنكرين ، واجتمعوا به (ص) واستمعوا إليه واستوقفهم عند إنسانية المسيح عليه السلام وأنه رسول من رسل الله عزت عظمته ، ونفى عنه الألهانية ، فاستنكروا ذلك واستكبروا وشككوا بنبوته صلى الله عليه وآله ، وقد أنزل الله سبحانه عليه : { إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ... } وقوله تبارك وتعالى : { فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ... الآية } إلى قوله عز وجل : { ثُمَّ نَبْتَهلْ فَنَجْعَلْ لعْنَتَ اللهِ عَلَىَ الكَاذبينَ . } .

فدعاهم رسول الله (ص) إلى المباهلة ، وذلك أمر كان متعارف في ذلك التاريخ ، وهو أن يختلف فريقان من الناس ، فيستنفر كل فريق نفيره ، ويجمع عشيره وقبيله ، ويقابل الفريق الآخر معتقداً كل فريق أن

الحق بجانبه وأن خصمه على باطل ، ويدعون الله ويسألونه إحلال غضبه ولعنته بمن كان على الباطل ، من جهة ، وإظهار أهل الحق من جهة ، فتنزل عند ذلك بالمبطلين ألوان من الكوارث بين خسف ومرض ونكبات تحل في ديارهم وأنفسهم ومتعلقاتهم .

وهكذا كان ، فلبوا دعوة النبي (ص) وإنما ائتمروا تلك الليلة فيما بينهم قبل حلول الموعد في الغد . وقرروا بموجب علمهم ودرايتهم ، أنه لو وافاهم محمّد (ص) بخيله وأبهته وأنصاره ، عارضاً قوته وسلطانه ، باهلوه ، إذ لا يفعل هذا الفعل نبي ، وإنما دَعيٌّ يريد الملك . أما إذا أتى بما هو دون ذلك من أمور الظاهر ومظاهر الدنيويين ، فننظر في الأمر هناك ونقرر في حينه .

وكان اليوم التالي ، وتلاقوا في المكان المقرر . وكانت هنالك المفاجأة التي أربكت وفد نجران : ذلك هو محمّد (ص) قد وافاهم ، وإنما ببضعة نفر ، عجباً ، لا يتجاوزون الخمسة . وأكثر من ذلك ، ففي الوفد رجلان فقط ومعهما إمرأة واحدة وطفلان . أجادٌّ محمّد (ص) في ذلك ؟ أبهؤلاء أتى يباهل وفد نجران الذي يمثل نصارى الجزيرة العربية ؟

= من الرجل معك يا محمّد (ص) ؟
= هذا عليّ بن أبي طالب إبن عمي وصهري وخليفتي من بعدي وهو صنو نفسي .
= وتلك المرأة المحتجبة وراءكما ؟
= هي إبنتي فاطمة الزهراء زوج عليّ ، وهذان ولداهما الحسنان ، سيدا شباب أهل الجنة .
= أمْهِلْنَا هُنَيْهَةً يا أبا القاسم .

وكان القرار الحكيم من وفد نجران :

إن في هذا النفر القليل عدده ، العظيم سره عند الله ومقامه ، لآيات لا قِبَلَ لنا بها ، قال كبيرهم ، في حدسي ، إضافة لما في كتبنا ، أنه لو باهل بهؤلاء أهل الأرض مجتمعين ، لاستجاب له الله سبحانه ما يسأله ، فالحكمة اجتناب المغامرة واجتناب التعرض لسخط الله جلت عظمته .

ثم رجعوا لمحمّد (ص) يعتذرون عن المباهلة ، فيلزمهم تبعات انسحابهم جزية يؤدونها ، مالاً وأقمشة وثياباً للمسلمين .

هكذا ، سجل تاريخ النقل والتدوين ، الذي يكاد يكون حبره ما زال يلمع على شرائح الجلد الرقاق والقراطيس ، هكذا سجل على أرض الواقع ، وشهد بذلك النصارى والمسلمون آنذاك وبعد ذلك ، هكذا سجل عمليا تأويل هذه الآية العظيمة الكريمة : { فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ... }

وهذا التأويل الساطع ، التاريخي ، المؤيد بالشهداء ، أسقطه الذين في قلوبهم زيغ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله سفهاً وجرأةً على الله وبغضاً وحسداً لأولياء الله المجتبين الأخيار الأبرار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

(3) { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولَهُ والّذينَ ءَآمَنُواْ الّذينَ يُقيمُونَ الصَّلواةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ والّذينَ ءَآمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَـٰلِبُونَ. سورة المائدة الآيات 55 - 56 } .

فأولوها ابتغاء الفتنة [1] ، وصرفوها عن صاحبها الأصيل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، عناداً واستكبارا وظن السوء ، فأداروا دائرة السوء على الأمة وما زالت تدور .

---

(1) هم اتبعوا التشابه الذي في هذه الآية الكريمة والذي هو في قوله تعالى { وَالَّذِينَ ءَآمَنُوا } لأنها بصيغة الجمع . علما أن الأحاديث تضافرت عن أكثر محدثي أهل السنة وفي أكثر تفاسيرهم ، وكذلك الروايات عن شيعة محمّد (ص) وآل بيته (ع) أن الآية أنزلت في عليّ بن أبي طالب إذ كان يصلي في المسجد وجاء سائل يسأل فأشار له عليّ (ع) بخنصره وهو راكع ، فتقدم السائل وأخذ خاتمه .

هكذا كان التأويل الحق لهذه الآية الكريمة { إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللهُ وَرَسُولهُ وَالَّذِينَ ءَآمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلواةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } فلفظة { وَلِيُّكُمْ } هي محور الكتاب كله من حيث أصالة التوحيد ، وكذلك هي في هذه الآية ، لأن أصل الولاية وأصل الإتباع هو لله عز وجل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً { هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ والظَّـٰهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ . سورة الحديد الآية 3 } . ومن حيث وجوب الإتباع أصالة لله عز وجل قوله تعالى : { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأنىَّ تُؤفَكُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدي إلىَ الحَقِّ قُلْ اللهُ يَهْدي لِلْحَقِّ أفَمَنْ يَهْدي إلىَ الحَقِّ أحَقُّ أنْ يُتَّبَعْ أمَّنْ لاَ يَهْدّي إلاَّ أنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمونَ . سورة يونس الآيات 34 - 35 }.

ولذلك سبحانه وتعالى عما يشركون ، بدأ آية الولاية بإفراد { إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ } ولم يقل إنما أولياؤكم . فجاءت الولاية لرسول الله (ص) ولعليّ (ع) بالتبع ، وهي أمر من الله ملزم بطاعة الرسول (ص) وإتباعه ، تماماً كما هو ملزم بطاعة الإمام عليّ (ع) وإتباعه . أما لفظة الجمع قوله تعالى { وَالَّذِينَ ءَآمَنوُا } ففيها معنيان متداخلان في حقيقة واحدة ، أولهما تكريم من الله سبحانه لإمام الأمة عليّ (ع) وثانيهما يعني ما في صلب عليّ من الذرية المعصومة بالنص ، الحسن والحسين (ع) كما أشرنا في التعليق على آية التطهير .

(4) { يَا أَيُّهَا الرَسُولُ بَلِّغْ مَا أنْزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَاس إنَّ اللهَ لاَ يهْدي القَومَ الكَافِرينَ . سورة المائدة الآية 67 } .

أمر من الله سبحانه من فوق سابع سماء ، بتنصيب عليّ بن أبي طالب (ع) خليفةً لرسول الله محمّد (ص) . وإذ نزلت أقام [1] الرسول لها مهرجاناً شعبياً تاريخياً في غدير خم وخطب وبلَّغ : ألا من كنت مولاه ... فأنزل الله سبحانه في نفس اليوم :

(5) { اليَوْمَ يَئِسَ الّذينَ كَفَروا مِنْ دينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِي اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَليكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإسْلـٰمَ دِينَا . سورة المائدة الآية 3 } .

وشهد الشهود ألوفاً مؤلفة ، وشهد الخاصة قبل العامة . ثم نكثوا ونكصوا وأوَّلوهما (الآيتين) كعادتهما مع بقية المتشابهات فباؤوا بغضب من الله على غضب ، وما زال غضبه سبحانه ماثلاً على هذه الأمة لتاريخه .

---

(1) عن آل البيت وجابر وابن عباس ، أن الله سبحانه أوحى لرسوله محمّد (ص) أن يستخلف علياً ، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه ، فنزلت هذه الآية الكريمة . وكان رسول الله (ص) قافلاً بمئات من المسلمين من حجة الوداع . حتى إذا نزلوا بمكان اسمه غدير غم ، أمر فنصب له منبر عال من أقتاب الإبل ، صعد إلى قمته وأصعد معه علياً بن أبي طالب ، فأشرف على الجموع ، وخطب خطبة الوداع ، الشهيرة في التاريخ الإسلامي ، وكان أبرزها إستخلاف عليّ بن أبي طالب إماماً للأمة بعد رسول الله (ص) ، حيث جاء فيها بخصوصه : أيها الناس ، ألست أولى بكم من أنفسكم ، قالوا بلى . قال . ألا فمن كنت مولاه ، فهذا عليّ مولاه ، ـ وأخذ بيد عليّ ورفعها ليرى ذلك جميع

من حضر ـ اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه كيف دار . ـ أو كما قال ـ ، إلى آخر الخطبة . ثم أمر فنصب لعليّ سرادقاً ، فأخذ يتوافد عليه المسلمون يهنئونه بهذا الحدث التاريخي الأهم في تاريخ الإسلام بعد الرسالة الميمونة . وكان في مقدمة من دخل عليه ، الصحابيان أبو بكر وعمر ، فهنأه كل منهما بقول ، على أن مقالة عمر له تناقلتها الركبان : بخٍ بخٍ لك يا عليّ ، لقد أصبحت مولاي ومولى كل مسلم ومسلمة .

ومنذ ذلك الحين ، وقبل وفاة رسول الله (ص) ، اشتهر عليّ عليه السلام بلقبين لا يكادان يفارقان اسمه : الإمام وأمير المؤمنين ، وقد كانا حكراً عليه ، حتى ذرت الفتنة قرنيها منذ السقيفة ، فشاركه باللقب الثاني (أمير المؤمنين) حتى الفسقة الفجرة فيما بعد ، ولا سيما من بني أمية وبني العباس . إلا أن لقب الإمام ، فما زاحمه ، مجرداً ، عليه أحد ، وإلى قيام الساعة ، بحيث أنه إذا قيل الإمام ولم يذكر اسم بعده ، فذلك يعني أنه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وكرم الله وجهه .

وهكذا صرفت الآية الكريمة : { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... } عن وجهها الصحيح ، وعن حقيقتها الناصعة ، ليتبعها الذين في قلوبهم زيغ ويؤولوها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها بما أفسد على الأمة أمورها الجليلة ، وحرمها من أعظم النعم : التوحيد الحق ، والوحدة المؤيدة من رب العالمين . والتي لا يمنحها سبحانه العزة والمنعة والقوة ، إلا إذا نبذت المحازبة لغير الله ولغير أوليائه الحقيقيين المنصوص عليهم . وإلا إذا رجعت عن التأويل الباطل للآيات المتشابهات ، وأخذت بالتأويل الحق كما أراده سبحانه وتعالى عما يشركون .

هذه خمسٌ ، وما نريد إحصاءً ولا حصراً ، إنما نريد الخلاص لهذه الأمة ، ولا يكون ، إلا بالعلم المؤيد بالبينات

القاطعة والبراهين القرآنية الدامغة ، ابتغاء النجاة وإصلاح ذات البين لهذه الأمة التي أصبحت على شفير . فعسى الله أن يتوب علينا ويقرب لنا وعده بميراث الأرض والفتح المبين .

ولن يكون كذلك ، إلا إذا صدعنا بأوامره التي تبرق وترعد بها آياته البينات ، وإلا إذا اتخذنا في أوليات شعاراتنا ، أقواله الحبيبة التي تدعونا إلى الوحدة والتوحيد ، وأن نتقيه حق تقـاته ، وما أوضحها وما أكبرها ، قوله تعالى :

{ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمُ فَرِحُونَ. فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ . سورة المؤمنون الآيات 52 - 56 } .

وقوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . سورة آل عمران الآية 102 }.

ثم هذه الآية العظيمة ، التي يكفي العمل بها بصدق لإحياء أمة ، والتي يجب أن يخاف من وطأتها كل من لا يعمل بها مخلصاً قلبه وجوارحه وكل كيانه لله وحده لا شريك له ، قوله ﷻ :

{ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ واذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّار

فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . سورة آل عمران الآية 103 } .

ثم يُرْدِفُهَا بهاتين الآيتين الكريمتين ، مبشرا دعاة التوحيد والوحدة ، الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، ومنذراً دعاة التفرقة [1] المُصِرّين على الخلاف من بعد ما جاءتهم البينات ، بالعذاب العظيم ، بقوله عز شأنه :

{ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىَ الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأولَـٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ . وَلاَ تَكُونُوا كالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَـٰتُ وأوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ . سورة آل عمران الآيات 104 - 105 } .

دعاة التفرقة ، المصِرّون على الخلاف ، ليسوا هم الذين يشاقون اليوم عليّاً بشخص عليٍ وأشخاص آل بيت النبّوة ، وإنما هم الذين يشاقون أنصار الله وأتباعه الذين أمرهم بإتباع محمّد وعليّ ، أي الشيعة بشكل عام . وما ذنب الشيعة في الحقيقة ، إلا أنهم رفضوا أن يتبعوا متشابهات القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها بالباطل . أي أنهم في الحقيقة كما رأينا ، أخذوا بتأويل الآيات كما رأوا تأويلها على أرض الواقع . تعاضدهم في ذلك ، الوقائع ، كما تعاضدهم الأحاديث ولا سيما المروية عن طريق إخوانهم من أهل السنة في صحاحهم . حرصاً يجب ألا يوازيه حرص آخر في حياة الإنسان الفرد ، وحياة الأمة . هو

الحرص من جهةٍ على نجاة الفرد من غضب الله في الدنيا ومن التخليد في العذاب في

الآخرة . ومن جهة أخرى على نجاة الأمة مما آلت إليه عبر عمرها المليء بالفتن والأخطاء والأحقاد . حتى أن المسلمين دمروا بعضهم أكثر مما دمرهم ويدمرهم أعداء الله وأعداء دينه .

فهل المطلوب من فريق التأويل الحق ، أن يعود إلى التأويل الباطل ، الذي كما رأينا كان سبباً في الإفساد والتمزيق وهلاك هذه الأمة ، أم العكس هو الصحيح ، أن يعود الأخوة الذين ورثوا التأويل الفاسد لمتشابهات القرآن الكريم ، ليعيدوا النظر في التاريخ وتقويم الأشخاص بالنظر العقلي والمنطقي ، لا بعين التعصب والمزاجية والإنفعال ، هذه الأمورالتي تغذيها الثقافة الجاهزة ، التي نهى الله سبحانه عنها نهيا فيه العتب وفيه الغضب ، قوله تعالى :

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا.... سورة يونس الآية 78 } .

وقوله سبحانه :

{... قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىَ عَذَابِ السَعِيرِ . سورة لقمان الآية 21 } .

فهذا العصر الذي يبدو أنه يشارف الساعة ، يعني أن الوعد الحق بنصرة المسلمين قبل القيامة إن شاء الله وشيك . ومن ذلك قوله سبحانه : { يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يأْتِي اللهُ بقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أَذِلَّـةٍ عَلَـىَ المُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَـىَ

الكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَٰلِكَ فضْلُ اللهِ ... سورة المائدة الآية 54 } .

فلنكن جميعاً بجميع مذاهبنا أمة واحدة مطيعة لربها العظيم ، مجاهدة منتصرة لله وبالله ولدين الله ، من قبل أن نباغت بالساعة ، أو

بدواهٍ دهياء كما نرى ونسمع ، قد تنفع معها ندامة النادمين ، إذا رجعوا لربهم وتابوا التوبة النصوح فـ { ... إِنَّ اللهَ يُحِبُ التَّوَابينَ ... سورة البقرة الآية 222 } أما إذا كانت الهلكة ووجد الإنسان نفسه مصداقاً لقول الله عز وجل :

{ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَـٰناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيوَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القِيـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ ببَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ومَأوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَـٰصِرينَ . سورة العنكبوت الآية 25 } .

أما مودة أهل البيت ففيها نص دامغ ، صحيح أنه لا يدفع أصالة أن يكون الحب الأعظم لله عزت عظمته وﷻ { ... يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ والّذينَ ءَآمَنُوا أَشَدُّ حُـبّاً للهِ ... سورة البقرة الآية 165} لأن حب أي مخلوق مهما عظم ينبغي أن يكون مما يفيض من حب الله بعد أن يطفح القلب بحبه سبحانه وتعالى عما يشركون . إلا أن النص في مودة أهل البيت عليهم السلام فماثلٌ ملزم ، قوله تعالى مخاطباً رسوله (ص) : { ... قُلْ لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبىٰ ... سورة الشورى الآية 23 } وأمّا غيرهم فلنتق الله في الحماس الجارف لهم ، ولنتأمل .. ولا نكونن في بلاهة من كتب على قبر حجر بن عدي رضوان الله عليه : هذا قبر الصحابي الجليل حجر بن عدي رضي الله عنه قتله صبراً معاوية رضي الله عنه لأنه كان شيعة لأمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه .

وليس المهم أن نترضى على هذا أو على ذاك ، أو أن لا نفعل . المهم هو بأيهم نقتدي ؟ بسلوك هذا أم بسلوك ذاك ؟ فأيهما أرضى الله وأيهما أغضبه سبحانه ؟ وعلى هذين فقس ما سواهما .

ومن نافلة القول ، أن نذكر أننا بالنسبة لأعداء الإسلام ، لسنا مستهدفين كسنّة على حدة ، ولا كشيعة على حدة ، وإنما نحن جميعاً

مستهدفون لأننا مسلمون لله تبارك وتعالى . { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلاَّ أنْ يُؤْمِنُوا باللهِ العَزيزِ الحَميدِ . سورة البروج الآية 8 } . فمتى نعي هذه الحقيقة ، ونوحد الله ، ونتوحد في سبيله ؟

نسأله تعالى أن يغفر لهذه الأمة قاصيها ودانيها ، وأن يرفع عنها غضبه ، وأن يهديها لمرضاته وحبه ، وأن يقرّب لها وعده بنصر عزيز ، وحضارة حرة رحيمة عادلة ، تكشف الحضارة الزنديقة التي يعيشها العالم اليوم ، إنه سميع مجيب .

لماذا نورانية ؟

لماذا سميت الأحرف المقطعة في أوائل السور ، الأحرف النورانية ؟

أولاً : تواترت الأحاديث بتسميتها كذلك ، حتى وجد المسلمون أنفسهم وفي جميع أقطارهم ومراحل تاريخهم ، يطلقون عليها هذه التسمية وكأنها تحصيل حاصل . كما أسموا بقية الأحرف التي لم ترد فيها ظلمانية .

ثانياً : من البديهي أن يكون اسمها كذلك ، منذ نزولها باللسان العربي ، ذلك لأن الله عز وجل ، شاء لها شرف ان يُدعَى سبحانه بها ، وأن تُنطَقَ بها أسماؤه الحسنى ، وأن يُسبّح بها ويُحمَدَ ويُمجّد ، في أعلى درجات التسبيح والحمد والتمجيد ، كما تنزه هو ، وكما حمد نفسه هو ، وكما هو تمجّد ، مما لايستطيع المخلوق أن ينشئه انشاء ، حتى ولا أن يستوعبه ويدرك جميع مضامينه . إذ لا طاقة لمخلوق ، ولا قدرة له على تمجيد الخالق وتسبيحه وحمده كما ينبغي لكرم وجهه ، بإنشاء المخلوقين حتى لو كانوا أنبياء ومرسلين .

ثالثاً : أن لهذه الأحرف النورانية من أسرار الفعل والدفع والتأثير ، والحصول على الإجابة السريعة ، دائماً جلباً للخير ونفعاً للأخيار ، ودفعاً للشر وتحصناً من الأشرار ، ما لا يستطيع علم من علوم الإنسان التقنية وأجهزته أن يوفره بنفس السرعة ونفس الأبعاد ونفس الشمول . وإذا ادّعينا أنها في بعض حالات المرض الخطيرة ، هي أسرع وأضمن من غرفة العناية الفائقة ، فسيكون ادعاؤنا مدهشاً عند الصديقين ، ومجلبةً للهزء والسخرية والتندُّر عند المغترين المكذبين . ولذلك جعلها الله لمن يؤمن هدايةً وشفاءً ، وفرجاً ومخرجاً ، وللمكابر الظالم الغاشم صمماً وعمىً وخسارا .

قال تبارك وتعالى :

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرءَآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَـٰلِمِينَ إلاَّ خَسَارا. سورة الاسراء الآية82}.

وقال عز شأنه :

{ يَـٰأَيُّهَا النَاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصّـدوُر وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ . سورة يونس الآية 57 } .

وقال جلت عظمته :

{ ... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَآمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي ءَآذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُوْلَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ . سورة فصلت الآية 44 } .

أما طاقات هذه الأحرف ونورانيتها المنفعلة والفاعلة ، التي تخترق الحجب في حدود مجالاتها ، فشبيهة بها ، ولو بنسبة الشمعة للقمر المنير ، أداة (الريموت كونترول) المستعملة في جهاز التلفزة لتوجيه الموجات واللاقط وغير ذلك . فكما أن هذه الأداة تنبعث منها طاقة نورانية لا سلكية ولا مرئية ، ومع ذلك هي تفعل وتُرى فاعليتها . كذلك الأحرف النورانية ، كذلك مواقع النجوم في القرآن الكريم ، تفعل وترى وتلمس فاعليتها . إلا أن الله سبحانه جعل فاعليتها مشروطة بالإيمان به وبكتابه وباليوم الآخر إيماناً عملياً ، وذلك لأن الفارق بين ما يصنع هو سبحانه وبين ما علّم الإنسان أن يصنع ، فارق عظيم بدون قياس .

ولأجل أن يفهمنا الله سبحانه أسرار الأحرف النورانية شيئاً فشيئاً ، فقد يسّر للإنسان ما يسّر من علوم الألكترون وأسراره وتقنيته ، فلم يعد صعباً أن نقول ما نقول عن أسرار الحروف القرآنية عامة وعن النورانية فيه خاصة ، وبالصوت العالي ، بعد ما علّم الله سبحانه ضعفاء خلقه من الناس أن يصنعوا تلك الالآت الألكترونية (المحدودة النورانية في مقابل صنيع الله) التي تخاطب وتتخاطب بالرموز القليلة ، منتجة معلومات ضخمة وقواعد معقدة ، وعمليات حسابية هائلة العدد

أرقاماً وقوانين ومستحدثات ملايين المسائل ، تحل دفعة واحدة بضغطة مفتاح ، وحتى بجزء من أكثر من مليار جزء من الثانية .

إذا عرفنا هذا ، ينبغي أن نعلم أنه سبحانه إنما علّم ذلك لأهل الغرب عامة في هذا العصر ، ليفهم أهل الشرق عامة ، أن ما آتاهم الله من فضله ، من أسرار دينه وكتابه القرآن المجيد ، هو أعظم بما لا يقاس ، مما آتى اليابان وأمريكا وأوروبا من علوم . فلتحل عندهم عقدة الضعف ، وليعلموا أن التمسك بحبله المتين وعروته الوثقى وكتابه الحبيب ، هو لهم أعز وأنفع وأبقى في الدارين . وفارق ما بين ما علَّمَهُمْ إياه الله ، وهم الصديقون الصابرون المجاهدون ، وبين ما علَّم الجاحدين الظالمين المعتدين من أهل الغرب (أهل الشمال) ، هو كفارق ما بين جنته وناره . هذا إذا صدق الشرقي الموّحد مع ربه ، وجاهد في سبيله سبحانه جِهَادَيْهِ : الأصغر قتالاً شرساً لأعداء الله وأعداء دينه وأعداء البشرية ، والأكبر ، وهو جهاد النفس وتأديبها بتأديب الله ائتماراً بأوامره وانتهاءً بنواهيه ، وإلا فقوله تبارك وتعالى :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَنْ نُؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رأَوُاْ العَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلَـٰلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة سبأ الآيات 31 – 33 } .

ويصبح كل ذلك عند أولي الألباب أوضح وأرسخ في اليقين ، كلما رَدَّدْنَا قوله تبارك وتعالى كمفتاح لهذه الكشوف عندهم في دنياهم ، وعندنا في ديننا :

{ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبيِّنَـٰـتِ فَرِحُوا بمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ ِ وَحَاقَ بهِمْ مَّا كَانُواْ بهِ يَسْتَهْزِءُونَ . فَلَمَّا رأوْا بَأسَنَا قَالُواْ ءَآمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بمَا كُنَّا بهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمـَٰـنُهُمْ لَمَّا رَأوْا بَأسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَـَٰـفِرُونَ . سورة غافر الآيات 83 – 85 } .

وقوله عز شأنه :

{ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أبْوابَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّىٰ إذَا فَرِحُواْ بمَآ أوُتُواْ أخَذنَـٰهُمْ بَغْتَةً فإذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . سورة الأنعام الآية 44 } .

وقوله عزت عظمته :

{ سَنُرِيهِمْ ءَايـَٰتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحَقُّ أوَ لَمْ يَكْفِ برَبِّكَ أنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ . ألاَ إنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَآءِ رَبِّهِمْ ألاَ إنَّهُ بكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ . سورة فصلت الآيات 53 – 54 } .

لماذا قراءة القرآن :

إذا كان أعظم وأعز مطلب في عمر الإنسان ووجوده ، هو اليقين بوحدانية الله عز وجل ، وبالتالي فهم التوحيد : **(لا إلـه إلا الله)** ، والتوحيد الأعظم **(الله أكبر)** ، فكل ذلك يحتاج إلى وسائل ، أظهرها وأكبرها ، وأفصحها وأخصرها ، القرآن الكريم .

والقرآن أنزله رب العالمين لجميع الناس بجميع طبقاتهم ودرجاتهم ، واتاح لكل منهم أن يفهم من القرآن ما يكفيه للإطمئنان النفسي ، والخلاص من الحرج والضلالة ودوخة الشكاكين ، وما يعينه على التدرج في معراج اليقين إلى رحمة رب العالمين ورضاه ورضوانه ، وإلى خير الدارين وسعادة الدارين ، مخترقاً بنور من الله يهدي قلبه ، كل ظلام يعترضه في الأرض أو في السماء .

وذكر الله عز وجل فريضة ، وعبادة مستحبة مؤكدة ، ومنجاة من تلاطم أمواج العمر ، وسعادة تتنامى وتزيد مع حسن الذكر وزيادته .

وأحسن الذكر ، أحسن الحديث :

{ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَـٰباً مُتَشَـٰبِهاً مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُوُدُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُوُدُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلىَٰ ذِكْرِ اللهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللهَ يهدِى بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لهُ مِنْ هَادٍ . سورة الزمر الآية 23}.

وأحسن ما في الأحسن ، هذه المثاني التي في الأحرف النورانية . والأحرف النورانية ، ليست التي فقط في مفاتيح السور، وإنما هي مبثوثة في جميع سور القرآن بشكل عام ، وفي السور ذات المفاتيح بشكل خاص .

إذن ، أفضل الذكر لله تعالى ، هو في القرآن المجيد :

{ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللهِ أولَـٰئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُبينٍ . سورة الزمر الآية 22 } .

والقرآن نعم القائد إلى الجنة لمن جعله أمامه ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار .

والقرآن هو الحديث الفريد الذي يجوز أن نتحادث به مع الله وقلوبنا مطمئنة لعدم الخطأ فيه أو الزيادة أو النقصان عما لا يليق بساحة قدس الله وعظمة الله وجلاله .

يقول سبحانه :

{ تِلْكَ ءَايَـٰتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالْحَقّ فَبأيّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وءَايَـٰتِهِ يُؤْمِنُونَ . سورة الجاثية الآية 6 } .

ثم نلاحظ أنه سبحانه جعل أصنافاً من العذاب لمن لا يستجيب لآياته ولا يتعهدها ولا يتدبرها ، ولا يبني على معانيها حاضره ومستقبله ، دنياه وآخرته .

فالويل ، والعذاب الأليم ، والعذاب المهين ، وعذاب عظيم، وعذاب من رجز أليم . هذه الأنواع المفزعة المحطمة من العذاب، هي لمن يعرض عن آيات الله ، عن أحسن الحديث الذي هو القرآن الكريم ، ويقتصر على غيره من أحاديث بقية الكتب وأحاديث المخلوقين .

فننظر ـ مستعيذين به سبحانه ـ إلى مواضع هذه الأصناف من العذاب في أطراف هذه الآيات من 6 ـ 11 في سورة الجاثية :

{ تِلْكَ آيَـٰتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ فَبأيّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَءَايَـٰتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) وَيْلٌ لِكُلّ ِ أفَّاكٍ أثِيمٍ (7) يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشّرْهُ بعَذَابٍ أليمٍ (8) وَإذَا عَلِمَ مِنْ آيَـٰتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُمْ مَّا كَسِبُواْ شَيْئاً وَلاَ مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ أوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) هَـٰذَا هُدىً والَّذِينَ كَفَرُواْ بآيَـٰتِ رَبّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رجْزٍ أليمٍ (11) .

إن الله لا يغفر أن يشرك به [1] :

في مجال فهم التوحيد ، إلى من يلجأ الإنسان ، ولمن يتعبد، وبمن يربط مصيره ، وعلى من يعقد آماله ، ومن يدعو ، وبمن يستغيث ، وبمن يعلق كل ثانية من ثواني عمره ، وكل نَفَسٍ من أنفاسه ؟

إذا ظن امرؤ أنه يجوز له أن يعتمد في شيء من هذا على الله وعلى أحد من عباد الله ، فقد ضل وهلك . اسمعه تبارك وتعالى يحدثنا إما مؤانسة أو تنبيهاً أو تقريعاً ، لكل حسب أحاسيسه وحسب اختلاف الأحايين . يقول عز شأنه :

{ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ءَاللّهُ خَيْرٌ أمّا يُشْرِكُونْ . سورة النمل الآية 59 } .

فيحس القارىء المفكر المتدبر ، أن الله عز وجل ، إنما يجيبه على سؤال ملحّ طالما ضيع كثيراً من الناس وأوقعهم فيما لا غفران معه : في الشرك الظاهر أو الشرك الخفي ، وذلك في جميع الملل ، وهو كيف أتعامل مع النبي الفلاني أو الإمام الفلاني أو الولي الفلاني أو مجموعهم ؟ والسائل عادة يضمر إعظاماً وإجلالاً وحباً لهؤلاء المخلوقين ، يتجاوز تعظيم الله وإجلاله وحبه ، قال تعالى :

{ ... وَالَّذِينَ ءَآمَنُواْ أشَدُّ حُباً لِلّهِ ... سورة البقرة الآية 165 }

---

(1) سورة النساء الآيات 48 , 116 .

وقد وصل بهم الأمر إلى تأليه بعضهم كما حصل لعيسى عليه السلام . وما زال يصل إلى تأليه آخرين ، وحتى في المذاهب الإسلامية ، ولا سيما السنة والشيعة . وكم وقف الناس أمام هؤلاء المخلوقين ، ناسين الله عز وجل ، منشغلين عنه بعبيده وبفقراء خلقه من الأنبياء والأئمة والأولياء ، وجميع خلقه إليه فقراء . فهم تارة يدعونهم وينادونهم بأسمائهم ، وتارة يستجيرون بهم ويستغيثون . ويذكرونهم أكثر مما يذكرون الله جلّت عظمته ، في مجالسهم وفي مناسباتهم ، وفي أفراحهم وفي أحزانهم ، ومجموع هذه العلاقة هو عبادة لهم . ويقرأون في كتاب الله العزيز ولا يفهمون ، قوله تعالى :

{ وَمَنْ أضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أعْدَاءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ . سورة الأحقاف الآيات 5 - 6 } .

يقرأون هذا ولا يفهمون ، { أفَأنْتَ تُسْمِعُ الصُمَّ أوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَـٰلٍ مُبِينٍ . سورة الزخرف الآية 40 } .

ويدّعون على الله وعلى قرآنه المجيد أنهم فيما يفعلون على حق . وأنه سبحانه يرضى بأن يمجدوا عباده من دونه وأن يتعبدوا لغيره تقرباً إليه . { أفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ

حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . سورة فاطر الآية 8 } .

كذلك الوثنيون كانوا يفعلون . كان النزاريون مثلا ، يحجون بيت الله ويلبّون هكذا : لبيك اللهّم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك ، ملّكته وما ملك .

وهؤلاء المتعبدون للأنبياء والأئمة والأولياء ، أو لبعض القادة والنافذين والزعماء ، من رجال دين أو زمنيين ، قال فيهم سبحانه :

{ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُم يَسْتَبْشِرُونَ . سورة الزمر الآية 45 } .

وقد رأينا فريقاً من هؤلاء الناس بأم أعيننا ، ولاحظنا إنكارهم واستنكارهم لذكر الله وحده في عيونهم وعلى وجوههم وفي فلتات ألسنتهم . ووثنيو اليوم كوثني الأمس ، على أن مسؤولية إنسان اليوم ، أكبر وأعظم ، لكثرة الدروس التاريخية وكثرة العبر ، ومستوى الثقافة والعلوم ، الذي تيسر له أكثر مما تيسر للسابقين في عمر البشرية .

فلننظر في ردّ الله عز وجل على السؤال المطروح بشكل خاص ، وهو كيفية التعامل مع الأنبياء والأئمة والصالحين ، ثم تقريره إلـٰهيته سبحانه ، ووحدانيته وهيمنته على الوجود بكل دقائقه وتفاصيله ، وعلى الإنسان ورعايته وإجابة دعائه واستخلافه في الأرض ، وغير ذلك من المعاني الرائعة ، في

بضع آيات من سورة النمل ، تهز النفس من أعماقها هزاً عنيفاً :

{ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ءَاللهُ خَيْرٌ أمَّا يُشْرِكُونَ (59) أمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ والأرْضَ وأنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأنْبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أن تُنْبِتُواْ شَجرَهَا ءَإِلَـٰـهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أمَّن جَعَلَ الأرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَا أنْهَـٰراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً ءَإِلَـٰـهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (61) أمَّن يُجيبُ المُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأرْضِ ءَإِلَـٰـهٌ مَّعَ اللهِ قَليلاً مَّا تَذَكَّرُون (62) أمّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَـٰتِ البَرّ والبَحْرِ وَمَن يُرْسِلِ الْرّيَـٰحَ بُشْرا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ءَإِلَـٰـهٌ مَّعَ اللهِ تَعَـٰلَىَ اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أمَّن يَبْدؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقَكُم مِّنَ السّمَآءِ والأرضِ ءَإِلَـٰـهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إن كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ (64) قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَـٰوَاتِ والأرْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍ مِنْهَا بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ (66) .

وواضح من أول آية في هذه المجموعة ، أن الحمد هو من الذكر ، فالحمد هو لله ، لأن الذكر المفروض هو ذكر الله عز وجل ، أما السلام فليس ذكراً ، وإنما دعاء بالأمن والأمان والسعادة والطمأنينة والرضى والرضوان من الله سبحانه ، يستجيبه ما دام هو أمر به عز شأنه . ثم قوله تعالى { ءَاللهُ خَيْرٌ

أمْ مَا يُشْرِكُونَ } ، فيه دمغ للسائل والمتسائل ، وقمع للشاك المتردد ، وزيادة يقين للموحدين . أما بقية الآيات في هذه المجموعة ، فكان يكفي أن تكون وحدها حجة على عقل الإنسان ونفسه وتفكيره ، لولا أن الله عز وجل كان أرأف وأرحم ، إذ تفضل على البشرية بعموم هذا القرآن الكريم وما فيه من هداية ورحمة وتسديد وترشيد .

ثم إنه من أعظم الإفتراءات على الله عز وجل وعلى كتابه الكريم ، دعوى من يدّعي أنه لا يقرأ القرآن لأنه لا يفهم القرآن . وقد أجرم بعضهم أكثر من ذلك عندما أمروا الناس بقراءة القرآن تعبداً ، وعدم السؤال عن معانيه ، يخوفونهم بذلك ويعطلون فيهم عقولهم وقلوبهم وتأملهم وتفكيرهم . سبحان الله ، وهؤلاء يقرأون في القرآن قوله عز وجل ، الموجه إلى جميع الناس على إختلاف درجاتهم ووصولهم وعقولهم :
{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا. سورة محمد الآية 24 } .

وهو سؤال فيه تقريع وذم لمن لا يفكر في معاني القرآن ولا يجتهد في تحصيلها تفسيراً وتأويلاً وائتماراً بأوامره وانتهاءً بنواهيه وتطبيقاً عملياً لجميع تعاليمه ، سواء على صعيد الفرد أو على صعيد المجتمعات الإقليمية أو على صعيد المجتمع العالمي كله .

وأشد إجراماً من هؤلاء وهؤلاء فريق ينصح بعدم قراءة القرآن أصلاً ، مدّعياً الإكتفاء بأخذ الدين من الأحاديث والروايات . وسواء كان هؤلاء فقهاء باحثين ، أو مثقفين عاديين أو من عوام الناس ، فإن الله عز وجل يهددهم بما في القرآن من شكوى الرسول (ص) يوم يشكوهم :

{... يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُواْ هَـٰذَا القرءَانَ مَهْجُوراً . سورة الفرقان الآية 30 } .

وفي هذه الآية الكريمة إنكار شديد على المعرضين عن كتاب الله المجيد ، وندب واضح لقراءته يترتب على مخالفته قسوة القلب والفسوق والضلال عن الصراط المستقيم :

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقّ وَلاَ يَكُونُواْ كالَّذِينَ أوتُواْ الكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثيرٌ مِنْهُمْ فَـٰسِقُونَ . سورة الحديد الآية 16 } .

ولا يمكن أن تخشع القلوب وأن تنجو من القسوة المنكرة المبغّضة عند الله سبحانه إلاّ بذكر الله ولذكر الله وما نزل من الحق كما تقول الآية الكريمة هذه ، والمقصود بـ { مَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِ } آيات الله البينات ، وهي مجموع القرآن الكريم .

أما الذين كذبوا بالقرآن ويجادلون في صحته ونسبته إلى الله عز وجل أو يجادلون في آيات الله بشكل عام ، وأعرضوا عن قراءته لعدم إيمانهم به ، فلهم عند الله شأن آخر من أشد العذاب : سحب بالسلاسل في الحميم ، وسجرهم في النار كما التنور بالحطب . يقول سبحانه في سورة غافر :

{ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بالكِتَـٰبِ وَبمَا أرْسَلْنَا بهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إذ الأغْلَـٰلُ فِي أَعْنَـٰقِهِمُ والسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِى الحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّار يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (72) .

ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر :

هذه الآية الكريمة مكررة أربع مرات في سورة القمر . ولن يتذوّق معناها ومؤداها ، ولن يشعر بكامل الخشوع والإستجابة ، إلاّ إذا قرأ السورة كاملة . من هنا نعلم أن الله عز وجل جعل من التركيب القرآني كائناً حياً ناطقاً مؤثراً أبلغ الأثر ، بكليات سوره ، ثم بمجاميع آياته ، ثم بكلماته ، ثم بحروفه ، وعبر ذلك كله بحركاته وسكناته . ولا تغني فيه سورة عن سورة ، ولا مجموعة عن مجموعة ، ولا آية عن آية . فمن أراد تمام الفائدة ، وكمال البشرى وكذلك الإنذار ، أي كمال العظة ، وعلى جميع المستويات العلمية والفكرية . فليقرأنَّ جميع ما بين دفتي هذا القرآن العظيم ، وليتمعَّنَنَّ فيه ، وليتدبَرنَّ معانيه ومغازيه ، ثم ليصبحنّ إن شاء له الله من العلماء ومن الأولياء لله ومن السعداء في دار الإنقطاع هذه ثم في دار الخلود .

والقرآن الكريم رغم كونه (أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) كما قال عنه سبحانه ، يعني أنه أعظم كلام معروف في الأرض وأرقاه ، وأعزه وأسماه ، وأبلغه وأجمله وأمسّه لشغاف القلوب ، وفيه وحده مفاتيح السماوات والأرض . ورغم أن فارق ما بينه وبين كلام المخلوقين ، كفارق ما بين الله في عزته وجبروته وعظمته وجماله وجلاله وأسمائه الحسنى ، وبين عباده الفقراء إلى غناه وإلى رحمته . فمثل واحد على تفرد القرءآن وتميّزه ، قوله تعالى :

{ وَإِذَا قَرَأتَ القُرءَآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً . سورة الإسراء الآية 45 . }

فأيما كلام من كلام المخلوقين ، يستحيل أن يدعي لنفسه اختزان مثل هذه الطاقة التي ثبت برهانها عملياً عند كثير من

المؤمنين . رغم ذلك كله ، وهو كلام الله ، فقد يسره سبحانه لجميع الناطقين من خلقه :

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْءَآنَ للذِكْر فَهَلْ مِنْ مُدّكِرْ } .

يسره سبحانه ، أحكاماً وتشريعاً ، هدايةً وتربيةً ، تسامياً وتصعيداً ، ويسره نوراً من السماء ليس كأنوار الأرض ، يكشف أبعاد العقل وأغوار النفس ، وأعماق الوجود . ويكشف في جملة ما يكشف تاريخ ما مضى وتاريخ ما بقي . وما أبلغ وأروع عبره ، لو صدّقه وأيقن المعتبرون . ومع كل ذلك يدَّعي سَفَهاً عدم فهمه ويتهيب من مقاربته ثلاثة : **جاحدٌ ختم الله على قلبه ، وجاهل يَدَّعِي عِلماً ، وببغاء مقلدٌ لهذا ولذاك .** أما أولوا الألباب فيقرأون قوله عز وجل :

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْءَآنَ للذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدّكِرْ } .

فيفهم من التحضيض الذي فيها ، كل على شاكلته : إما تهديداً ووعيداً ، وإما إغراءً وترغيباً ، وإما مناجاةً ومؤانسةً . وكذلك كلام الله جلت عظمته ، **وَهُوَ اللهُ الَّذِى لا إلـه إلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَـٰمُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .**

لو أنزل هذا القرآن على جبل .. :

قال سبحانه : { لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذَا القرءَآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَـٰشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الحشر الآية 21 } .

ونقارن هذه الآية بقوله تبارك وتعالى :

{ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَىَ السَمَـٰوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَـٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً . سورة الأحزاب الآية 72 } .

فنجد معادلتين متشابهتين : فالجبال ـ وهي مخيّرة ـ أبت أن تحمل هذا الدين أمانة ، من عناصرها قراءة هذا القرآن وتدبره والعمل به .

وكذلك لو أنزل الله ، ربنا المجيد ، هذا القرآن على جبل ، لخشع الجبل وتصدّع خوفاً من الله ، والتصدع ، الشقوق الكثيرة العميقة التي يسمع لها صوت ، يعني لو أنزل هذا القرآن على جبل لتفسخ وتهدم بشكل يصدم المشاهد ويذهله .

فما بال هذا الإنسان ، وقد اختار وهو مخّير كذلك ، حمل هذه الأمانة قبل المجيء إلى الأرض ، فرضي بحملها ، ثم إذا هو بعد الإهباط ، بين جاحد ومعرض ومتخذ هذا القرآن ظهريا . وقليل هم الصديقون القرآنيون .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، قوله تعالى { لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذاَ القُرْءَآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ } لا يعني أن يوضع القرآن هذا الذي

دفتاه وما بينهما من ورق مقوَّى وغير مقوى على الجبل . وإنما المقصود مضامينه ، المقصود الآيات ، والمقصود بالآيات معانيها الظاهرة ثم الباطنة ، وذلك للدرجات السبعين التي بين التكذيب والشك واليقين . والله سبحانه { يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أوتِىَ خَيْراً كَثيراً وَمَا يَذّكّرُوا إلاّ أوْلوُا الأَلْبَـٰبِ . سورة البقرة الآية 269 } .

مضامين القرآن يتصدع لها الجبل إذا أنزلت عليه ، وليس للجبل في الظاهر سمع ولا بصر ولا فؤاد ، وهو غير مسؤول عن حمل الأمانة .

أما الإنسان الذي اختار حمل الأمانة ، والذي من أجل ذلك جهزه الله عز وجل بالسمع والبصر والفؤاد ، فمسؤوليته جد حساسة ، وحسابه دقيق ، فأين هو من هذه المسؤولية وهذا الحساب ؟

{ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِيَهُمْ أعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ . سورة الأحقاف الآية 19} .

يقول عز وجل : { وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِنْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبْصَـٰراً وأفْئِدَةً فَمَا أغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أبْصَـٰرُهُمْ وَلاَ أفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بآيَـٰتِ اللهِ وَحَاقَ بهم مَّا كَانُواْ بهِ يَسْتَهْزءُونَ . سورة الأحقاف الآية 26 } .

صحيح أن هذه المعادلة فيها عدالة الله ، لكن عدو الله فيها هو الخاسر . أن يجحد فريق من البشر بآيات الله فيعطل الله

سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم .. هذا كثير في القرآن ، وذلك يشبه قوله عز وجل :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْراً وإِن تَدْعُهُمْ إِلى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَداً . سورة الكهف الآية 57 } .

ففي الآية الأولى { ولقد مكّنّـٰهم ... } لا يفيد الإنسان سمعه ولا بصره ولا فؤاده إذا هو جحد بآيات الله ، أي أنكرها وأعرض عنها . ويزيد على عقوبات الدنيا هذه ، عقوبة الأبدية في الآخرة ، حيث يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون .

وفي الآية الثانية إنسان يذكّر بآيات ربه فيعرض عنها ، فينسى ذنوبه صغائرها وكبائرها وإهماله لآيات ربه .. فيجعل الله بسبب ذلك كِنّاً على قلبه يمنعه به من فهم القرآن الكريم ، ومن فهم أي أية فيه فهما صحيحاً مراداً للصالحين . ويجعل في أذنيه ثقلاً لا يسمع معه نبرة الإصلاح والتسديد والتقويم { إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ ... سورة الإسراء الآية 9 } . وأخيراً ينتج من كل ذلك أن أيما مخلوق يدعو هذا الإنسان إلى الهدى ، إلى الحق ، إلى الله ، فإن هذا الإنسان لن يستجيب ولن يهتدي أبداً . فقد أصبح مغلقاً حقَّ عليه غضب الله سبحانه وحقت عليه كلمة العذاب .

وذكِّرْ فَإنَّ الذِكْرَى تَنْفَعُ المُؤمِنينَ :

قوله تبارك وتعالى : { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِكْرَىٰ تَنْفَعُ المُؤمِنينَ . وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَآ أريدُ مِنْهُمْ مِن رزْقٍ وَمَا أرِيدُ أن يُطْعِمُونِ . سورة الذاريات الآيات 55 - 57 } .

هذه الآيات الثلاث تركز على ثلاثة مبادىء أساسية تدور كلها حول محور التوحيد :

المبدأ الأول : أمر الله بالذكر لكل عاقل ، ثم التنبيه إلى أن الذكر أو الذكرى تنفع المؤمنين خاصة . فإذا انتفع المؤمن بذلك فهذا كفاية ، والله الكافي . والدليل على أن الأمر إلـٰهيٌ وهو لجميع العقلاء ، قوله تعالى :

{ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰناً فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ . سورة الزخرف الآية 36 } .

المبدأ الثاني : وجوب طاعة أمر الله في لزوم الذكر ، لأنه سبحانه وتعالى إنما خلق الإنسان ليطيعه سبحانه ، إئتماراً بأوامره وانتهاءً بنواهيه وذلك معنى قوله عزت عظمته { وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ } .

المبدأ الثالث : أن طاعة الخلق له تبارك وتعالى ، إنما هي حدود وضوابط ورياضات ، تصب دائماً في مصالحهم الشخصية البحتة . وأن الله عز وجل ، ليس له مصلحة ولا منفعة ينالها من وراء ذلك . فهو المصلح المنجح وحده لا شريك له . وهو الغني عن عباده ، والعباد هم الفقراء إليه سبحانه :

{ يَـأيُّهَا النَّاسُ أنْتُمُ الفُقَرَآءُ إلَىَ اللهِ واللهُ هُوَ الغَنِيُّ

الحَميدُ . سورة فاطر الآية 15 } .

وذلك مما عناه في قوله عز شأنه في المبدأ الثالث الـذي نحن بصدده : { مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِن رزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونَ } ثم يذيّل الآيات هذه بالحقيقة الأزلية الأبدية التي هي مضمون قوله له الحمد :

{ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ . سورة الذاريات الآية 58 } .

هو الرزاق وحده لا شريك له ، ذو القوة المتين ، القوة المطلقة التي لا يقف في وجهها شيء ، ولا يعجزها شيء ، وفي هذا الإطلاق قوله عز شأنه { إِنَّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} ، وهذا المعنى مكرر في عشرين آية ونيّف.

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْر الرَّحْمَن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰناً فَهُو لَـهُ قَرِينٌ :

الشيطان في المفهوم الإسلامي :

أولاً : في لغة العرب : جاء في اللسان لإبن منظور في باب شيط ، ما يلي : شاط الشيء شيطاً وشياطة : إحترق . وأشاط فلان فلاناً إذا أهلكه . وأصل الإشاطة الإحراق ، واشتاط عليه : التهب . والشيطان : فعلان من شاط يشيط . انتهى .

و (شيطان) كـ (إنسان) كلاهما إسم نوع ، يعني الفرد ويعني المجموع ، ومثلهما في اللغة كثير ، مثل : هذا عدوٌ وهؤلاء عدوٌ ، ومثل طفل وصديق ...

ثانياً : في القرآن الكريم : من عشرات الآيات التي ورد فيها ذكر الشيطان ، اخترنا كنماذج ، أربع آيات ، لصلتها بهذا البحث وهي قوله تبارك وتعالى :

- { الشَيْطَـٰنُ يَعِدُكُم الفَقْرَ وَيَأمُرُكُم بالفَحْشَآءِ واللهُ يعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . سورة البقرة الآية 268 } .

- { إنَّ الَّذِينَ تَوَلَّواْ مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ إنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَـٰنُ ببَعْضِ مَا كَسَبُواْ ... . سورة آل عمران الآية 155 } .

- وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ رئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤمِنُونَ باللهِ وَلاَ بالْيَوْمِ الآخِر وَمَنْ يَكُنْ الشّيْطَـٰنُ لَهُ قَريناً فَسَاءَ قَريناً. سورة النساء الآية 38 } .

- { الَّذِينَ ءَآمَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِـي سَبيـلِ الطَـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوا

أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَـٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفَا . سورة النساء الآية 76 } .

ثم من مرادفات الشيطان ، الطاغوت ، ولو كانت كلمة الطاغوت أعم من ذلك ، فهي من طغىٰ يطغى ويطغو ، أي تجاوز تجاوزاً كبيراً { إِنَّا لمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِي الجَارِيَةِ . سورة الحاقة الآية 11 } .

أ) أن كل ما يعبد من دون الله هو طاغوت لعابده ، وقد لا يكون كذلك لذاته .

ب) الشيطـٰن : إفراداً وجمعاً ، إنسياً أو جنياً ، صغيراً مما دقّ فلا يرى إلا بمكبر ، أو كبيراً كما نوّه سبحانه عن فصائل منه ، من شياطين الجن والإنس وآلات الإنس : { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُنْيَا بِزِينَـةٍ الكَواكِبْ . وَحِفْظاً مِن كُلِ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ . ّلا يَسَّمَّعُونَ إِلَىَ المَلاَءِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَّابٌ وَاصِبٌ . إِلاّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أم مَنْ خَلَقْنَا ... . سورة الصافات الآيات 6 – 11 } .

ثم ما لا يرى إطلاقاً إلا ما شاء الله : { يَـٰبَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَـٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوءَاتِهِمَا إِنّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيـَٰطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ . سورة الأعراف الآية 27 } .

وكذلك النفس الأمارة بالسوء ، شيطان ذاتي لصاحبها ، أو طاغوت ذاتي كما هو مبين في جملة معاني قوله تبارك وتعالى:

{ والَّذِينَ اْجْتَنَبُواْ الطَّـٰغُوتَ أنْ يَعْبُدُوهَا وأنَابُواْ إلَىَ اللهِ لَهُمُ البُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ . سورة الزمر الآيـة 17 } .

وقد يختصر كل ذالك ويوضحه إيضاحاً بيّناً قوله عز وجل :

{ لاَ إكْرَاهَ فِي الدِّينِ . قَدْ تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنْ باللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . سورة البقرة الآية 256 } .

بعد هذا الإستعراض لمفهوم الشيطان وأصنافه ومعانيه وأحجامه وخفائه وظهوره ، أصبح ممكناً أن نفهم بشكل أوضح وأدق وأشمل معاني قوله ﷻ :

{ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْر الرَّحْمَـٰن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰناً فَهُوَ لَهُ قَرينٌ . وَإنَّهُمْ لَيَصُدَّوْنَهُمْ عَنِ السَّبيلِ وَيَحْسَبُونَ أنَّهُم مُهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إذَا جَاءَنَا قَالَ يـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرقَيْنِ فَبِئْسَ القَرينُ . سورة الزخرف الآية 38 } .

في اللغة (يعْشُ) يتعامى ، (نُقَيِّضْ لَهُ) نتيح له ، نسبب له ، نجيء له به و (شَيْطَـٰناً) كما أسلفنا ، منه الجمع والإفراد ، الكثير والقليل ، الصغير بحجم الذرة والميكروب ، أو أدنى من ذلك وأكبر بما يشاء الله عز وجل . وهكذا يكون من وجوه معنى (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ ... الآية) . أنه من يتعامى عن ذكر الله ـ وفي رأس الذكر قراءة القرآن وتدبره

ـ نوظف له شيطاناً فرداً ، أو مجموعاً ، مما يرى أو مما لا يرى ، مما صغر أو مما كبر، أو من جميع هذه المسميات ، ونجعل ذلك أو كل ذلك قريناً لهذا المتعامي عن ذكر الله سبحانه وتعالى عما يشركون .

ويفسر وجهاً من وجوه هذه الآية فضلاً عما ذكرنا ، قوله تبارك وتعالى :

{ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ ايْديهمْ وَمَا خَلْفَهُمُ ... . سورة فصلت الآية 25 } .

والقرناء أو القرين ، قد يقيّض للإنسان في نومه ، رجُلاً كان أو امرأة ـ ولعلّه للنساء أكثر، والعوام يسمونه (القرينه) ـ لعقوبة أو درس أو توجيه . وقد يقيّض في اليقظة وفاعليته عند ذلك أخطر، ويصل خطر ذلك إلى أقصاه ، إذا كان حقّ القول على الغافل عن ذكر الله ، المتعامي عنه ، كما في سياق آية (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ...) قوله عز شأنه :
{ ... وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَولُ فِي أمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنّ والإنْسِ إنَّهُمْ كَانُوا خَـٰسِرينَ . سورة فصلت الآية 25 } .

وتقييض شيطانٍ لإنسانٍ ما ، إنما يكون نسبياً كمَّاً وكيفاً وزماناً ومكاناً ، بنسبة التعامي عن ذكر الله . فلو أن إنساناً تعامى وغفل كلياً ، فهي القاضية ـ إذا لم يمدد له الرحمن مدا ، ليبتليه ويبتلي به ـ إما بشيء عضال ... وإما بإهلاكٍ قبل استكمال عمره المكتوب له : { ... هَلْ يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الَظَّـٰلِمُون . سورة الأنعام الآية 47 } . { فَهَلْ يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الفـٰسِقُونَ. سورة الأحقاف الآية 35 } .

وفي هؤلاء قال سبحانه :

{ إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَـٰنُ فأَنْسَـٰهُمْ ذِكْرَ اللهِ أولَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيطَـٰنِ ألا إنَّ حِزْبَ الشَّيْطَـٰنِ هُمُ الخَـٰسِرُونَ . سورة المجادلة الآية 19 } .

والإستحواذ على إنسان ما ، هو أخذه بكليته ، نفساً وبدناً. ولو أن إنساناً تعامى نسبياً ، فبنسبة تعاميه يكون تقييض الشيطان له ، ميكروباً كان أو جنياً أو أنسياً ، قليلاً أو كثيراً .

ولماذا لا يتمرّد الضحية على شيطانه أو شياطينه بشتى أصنافهم ؟ ذلك لآن الضحية يحسب أنه مهتدٍ وأنه على خير . وهذا نعرفه في المجتمع العالمي بشكل عام ، وقد نراه يومياً حولنا . وهو أن أكثر الناس ، أميل إلى التحلل مما أوجب الله عليهم سبحانه ، في أكثر شؤونهم الحياتية والسلوكية : بين ملحد وعلماني ومشرك ومتردد ومتحير وشكاك . فإن كل واحد من هؤلاء ، مع قرينه أو قرنائه الذين يصدونه عن السبيل الحق ، إنما يحسب أنه هو المهتدي وهو المصيب وهو الأعقل والأفهم ، لا سيما إذا قارن نفسه ، بالمؤمنين المتدينين ، المتهمين عادة بأنهم متحجرون ، وأنهم متزمتون ، وأنهم ثقلاء على الأنفس المتحررة ، وعلى أبناء الحياة وأهل الإنفتاح ، كما يزعمون لأنفسهم .

وهذا المعنى ضمّنه سبحانه في الآية التي تلي قوله له الحمد : (وَمَنْ يَعْشُ ...) وهي : (وإنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ الْسَّبيلِ وَيَحْسَبُونَ أنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . سورة الزخرف الاية 37) .

ثم بعد هذه مباشرة ، كما رأينا ، قوله عز وجل : { حَتىَّ إذَا جَاءَنا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرقَيْن فَبئْسَ الْقَرينُ . الزخرف الآية 38 } . وهذا المعنى يفهمه معظم قراء القرآن والمفسرين أنه (حَتىَّ إذاَ جَاءَنَا) يوم القيامة . والحقيقة أن هذا المعنى المتداول هو جزئي بالنسبة للمعنى العام ، إذ أن عموم معنى (حَتىَّ إذَا جَاءَنَا) يشمل الحياة الدنيا كذلك ، وذالك في قوله سبحانه :

{ وَهُوَ الَّذِي فِي الْسَّمَآءِ إلَـٰـهٌ وَفِي الأرْضِ إلَـٰـهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ . سورة الزخرف الآية 84 } .

وقوله تبارك وتعالى :
{ ... وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَ مَا كُنْتُمْ ... . سورة الحديد الآية 4 } .
وقوله عزت عظمته :

{ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى بَيْنَ ثَلاَثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إلاّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أكْثَرَ إلاَّ هُوِ مَعَهُمْ أيْنَمَا كَانُوا ... . سورة المجادلة الآية 7 } .
{ ... وَهُوَ الْسَّمِيعُ الْبَصِيرُ . سورة الشورى الآية 11 } .
فمعنى (حَتىَّ إذَا جَاءَنَا) من وجه ، هو عندما يصاب الإنسان الغافل بمصيبة ما في نفسه أو بدنه أو متعلقاته ، فإذا ذكر الله بعد نسيان طويل أو قصير ، يكون قد جاء الله سبحانه فيندم على غفلته ، ويندم على تعاميه عن ذكر الله وعن كتابه وعن عبادته وعن توليه مع كل نفس من أنفاسه . ويعي أن قرينه أو قرناءه إنما هم له أعداء ، فيقول لقبيل شياطينه ، كما قال عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سبحانه :

{ حَتىَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ . الزخرف الآية 38 } .

حتى إذا استفاق الإنسان ورجع إلى الله بعد كل مصيبة من مصيباته . أما إذا لم يستفق ، فلا بد هو ذاكر ذلك في نزعه الأخير في يوم الفراق ، فراق الدنيا وفراق القرناء ، عند مواجهة الموت ، وكذلك يوم القيامة ، وكذلك يوم الحشر ، وكذلك يوم التوزيع إما إلى جنة إما إلى نار ، وإلى أبد الآبدين .

وسوسات النفس الأمّارة :

في خواطر كثرة من المؤمنين وعلى ألسنتهم أسئلة كثيرة يتطارحونها هنا وهناك ، من مثل : لماذا القرآن ؟ ألا يكفي ـ بدون القرآن ـ الإيمان بالله والعرفان بالله وتوحيد الله والخلوص من أنواع الشرك ما ظهر منها وما بطن ؟ وألا يكفي مع ذلك ، الإنتصار على الشياطين ، وهذا ممكن جدا مع ذكر الله بدون القرآن الكريم ، ومع اللجوء الدائم إليه سبحانه في ليل الإنسان ونهاره ، وحركاته وسكناته .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، لماذا لا يكون القرآن كتاب تشريع وأحكام ، يعتمده أهل الحكم وأهل الحل والربط ، وأهل الإختصاص ، فيوفر على الناس ، قراءاته وتلاوته والتعبد بذلك كله ؟

هذا ، إلى أسئلة كثيرة حول موضوع القرآن وقضية الإلزام بذكر الله .

والجواب على كل ذلك ، هو أنه بالرغم من كون القرآن المجيد ، هو دستور لكل فرد على حدة ، وهو دستور لكل أسرة على حدة ، وهو دستور لكل دولة مسلمة لله بالحقيقة ، ومن ثم يفترض أن يكون دستور العالم برمته . فهو فضلاً عن ذلك كله كنز أسرار يتفتّق عنها حسب الحاجة لدى الفرد أو المجموع ، وهو خزانة تعليم ، تسبر أغوار النفس البشرية مفردة ، والنفوس مجتمعة ، وتكشف مكامن غيب أو شهادة ، في حاضر الإنسان الفرد ومستقبله ، كما وحاضر الجماعة ومستقبلها ، كما وحاضر العالم ومستقبله ، في الصراع الدائم الدائر بين الفريقين العالميين : أهل الإيمان وأهل الكفران .

قلنا في بعض حديثنا آنفاً ، أن هناك أمر جد حساس ، وجد خطير ، هو الشيطان الذاتي ، أو الطاغوت الذاتي ، وهو تسمية حقيقية قرآنية ، للنفس الأمارة كما أسلفنا .

والنفس الأمارة بالسوء عند الفرد ، تصبح إذا تعددت ، نفوساً أمارة عند الجماعة ، فتصبح الجماعة أو في الجماعة ، مجموعة شياطين . تبقى حيناً يطول أو يقصر ، حتى تنقذ بذكر الله عز وجل وبالركون إليه سبحانه ، فإذا لم تركن إلى الله ، بقيت مجموعة شياطين ، وقد تحكم دولاً ، وقد تحكم أمماً ، وقد يطول بها الزمان ، حتى يقضيَ الله أمرا كان مفعولا .

ووحده القرآن الكريم وتعاليمه وآياته ، يهدي الأنفس الأمارة أو الشياطين الذاتية ، إذ بدونه وبدون تعاليمه ، تبقى النفوس في حيرة وارتباك وتردد ، بصدد ما يجب أن تفعل ، وهي دائماً أميل للجريمة والمعصية ، والإنفعال مع الشهوات ، شهوات القوة ، والسلطة ، والسيطرة ، والظلم ، والجنس ، إلى

آخر ما هنالك من إغراءات شيطانية وإنحرافات أخلاقية وإجتماعية .

وعلى مدى ضبط القرآن الكريم ، وفوز المؤمنين بالإلتزام بتعاليمه ، نضرب مثلاً آية كريمة ، من مئات الآيات الموجهة والضابطة لسلوك الفرد وسلوك الجماعة ، قوله تعالى :

{ يَسئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ والفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ، وَلاَ يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينكُمْ إِنِ اسْتَطَـٰعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فأولَـٰئِكَ حَبطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِي الدُنْيَا والآخِرَةِ وأولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . سورة البقرة الآية 217 } .

وفي الآية كما هو واضح :

أولاً : جهل بحلية القتال في الشهر الحرام ـ أي شهر من الأربعة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مفرد ـ أو بحرمته . وذلك بعد أن حرّم النسيء الذي هو إبدال شهر مكان شهر ... فكان التعليم : أن القتال فيه كبير ، أي إثم كبير. طبعاً وفي ذلك استثناءات يعتني بها الفقه الإسلامي ، أبرزها أنه لا حرمة لمن لا يعتقد بهذه الحرمة ، فيقاتَلُ في كل مكان .

ثانياً : ما لم يكن يعلم المسلمون ولا المشركون ، أن الصدّ عن سبيل الله ، أي دينه ، والكفر به سبحانه أو بسبيله ، وكذلك الصد عن المسجد الحرام وعن الحج إليه

، وكذلك إخراج أهله منه ، وهم رسول الله (ص) وأصحابه والتابعون لهم بمعروف إلى يوم يبعثون ، كل ذلك هو أكبر عند الله وأعظم إثماً من القتال والقتل في الشهر الحرام .

ثالثاً : هذه القاعدة الرائعة ، ذات الأبعاد العميقة ، والتي تدعو إلى التأمل والإعجاب الشديد الممزوج بالخشوع والخشية ، وهي قوله عزت عظمته : { والفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ } . أي أن يُرَدَّ الإنسان فيرتد عن إيمانه بعد إذ آمن بالله ورسوله وكتابه ، فذلك أشد من أن يقتل ، يعني أن يقتل هذا الإنسان وهو على إيمانه فيخلّد في نعيم الله الأبدي ، أفضل له بما لا يقاس ، من أن يُفتَنَ ويردَّ أو يرتدَّ عن دينه ، نتيجةً لأنواع الضغوط الخارجية والذاتية ، فيخلَّد في نار جهنم .

رابعاً : سبر أغوار نفوس المشركين والكفرة وأعداء الإسلام والمسلمين هؤلاء الأعداء لن ينفكوا عن قتال المسلمين حتى يردّوهم عن دينهم ، وذلك ثابت حتى يحكم الإسلام العالم إن شاء الله العزيز الحكيم .

خامساً : هذا الحكم الساري المفعول عند الله سبحانه ، والذي لا يقبل الإستئناف ولا الإعتراض ولا المناقشة ، وهو أن { وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ... } دون توبة ولا رجوع عن ارتداده ، فذلك يحبط عمله ، أي تعتبر أعماله صفراً ، عدماً ، ولو كانت جبالاً من النفع والخير والصالحات . ثم يدخل النار مع أصحاب النار ، ويكون فيها من المخلدين .

وهكذا .. { طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فإذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ . سورة محمد الآية 21} .

وهكذا .. لولا هذه الآية { يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فيهِ ... } لاضطرب المؤمنون وتنابزوا وفشلوا فيما بينهم من جهة ، وفي مقابل أعدائهم من جهة ثانية ، إضافة إلى ما يلحقهم من آثام فردية وآثام عامة ، قد تستدعي ـ كما نعلم من القرآن الكريم إذا كثرت وكثر أصحابها ـ غضب الله وسخطه ، يعني عقوباته النسبية ، التي أدناها قحط وغلاء ، وحروب أهلية وحروب عامة ، وخوف وفوضى وفلتان ، وضمن ذلك كله العقوبات الفردية في الأنفس والأبدان والمتعلقات من مال وأهل وولد وأحباب وخلان .

الفصل الثاني

الحمل الإصطناعي بين الحضارة والشريعة

ما زال الإعلام يطالعنا بين الحين والحين بأخبارعجاب ، عن المحاولات والإنجازات العلمية ، في مجال الحمل غير الشرعي في مواجهة العقم . وكذلك أخبار تربية الأجنّة " زراعياً " إما في آنية مخبرية ، وإما في رحم غير رحم الزوجة العقيم . أو نقيض ذلك أن يكون الزرع في الزوجة الشرعية ولكن الماء أو النطفة من رجل غير زوجها . إلى غير ذلك مما يتفرع من حالات ومستجدات .

ويلاحظ أن كل ذلك يتم تحت عنوان الديمقراطية والحرية وحماية القوانين أو سكوتها ، لعدم وجود تشريعات وضعية في

هذا المجال . كذلك ، ولتاريخه ، سكوت مجالس التشريع والحكومات والجمهور، وموقف الجميع موقف المتفرج، وربما المعجب الفخور .

من هنا ، وإنطلاقاً من هذه المقدمة الوجيزة ، وبناءً على ما وجه إلينا من أسئلة ، قررنا بإذنه تعالى ، أن نعرض هذه الأمور وأشباهها ، على شرع الله ، معتمدين ، فيما أنزل الله وفيما شرّع ، على أهم مصادر التشريع ، وهي القرآن المجيد ، والسنّة المطهرة ، والعقل والإجماع إلخ ... مؤكدين على النص القرآني ، ما دام موجوداً ، حيث لا إجتهاد معه ، مستفيدين من بقية المصادر المذكورة إذا وجدنا ذلك ضرورياً ، فقط في شرح النص ، وذلك منعاً لكل لبس . فوحده القرآن في المدونات {لاَّ يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ... . سورة فصلت الآية 42 } ووحده في المدونات {.. لاَ رَيْبَ فِيهِ.. . سورة السجدة الآية 2 } . ولا سيما في هذا العصر، بعد أن اجتاح التحوير والتزوير جميع المدونات الدينية المعروفة على ظهر هذا الكوكب . هذا لأنه وحده في المدونات ، قال فيه الله عز وجل :

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . سورة الحجر الآية 9 }

فبخصوص الموضوع الذي نحن بصدده ، نجد أن الله سبحانه قد أورد في كتابه المجيد ، أصلين تشريعيين ، يحددان بشكل مباشر، قضية الحمل الفطري أو الشرعي بجميع جوانبها ، ويضبطان جميع ما قد ينجم عن ذلك من تفريعات ، تحت طائلة التحريم والآثام الغليظة المهلكة .

التشريع الأول : قوله تبارك وتعالى :

{ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فأْتُواْ حَرْثَكُمْ .. . سورة البقرة الآية 223 } .

التشريع الثاني ، قوله عز شأنه :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُـمْ وَبَنَـاتُكُـمْ وَأخَوَٰتُكُـمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ الأخِ وَبَنَاتُ الأخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُـمُ ٱلَّـٰتِى أرْضَعْنَكُـمْ وَأخَوَٰتُكُـمْ مِـنَ الرَّضَـٰعَةِ وَأمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰئِلُ أبْنَآئِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أصْلَـٰبِكُمْ وَأن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً . وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ النِّسَآءِ إلاَّ مَا مَلَكَتْ أيْمَـٰنُكُمْ كِتَـٰبَ اللهِ عَلَيْكُمْ .. . سورة النساء الآيات 23 – 24 } .

فبخصوص التشريع الأول ، قوله تعالى : { نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ } :{ نِسَآؤُكُمْ } أزواجكم الشرعيات ، تقضي بذلك اللغة العربية والقرآن الحكيم الذي يفسر بعضه بعضا.

{ حَرْثٌ لَكُمْ } الحرث في الأصل ، الأرض التي تحرث لتزرع ، الأرض التي يلقى فيها البذار ، ويكنى لغة بالحرث ، عن كل مكان ينمَّى فيه مطلق النماء ، أو يثمّر فيه مطلق الثمر ، قوله تعالى :

{ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصيبٍ . سورة الشورى الآية 20 } .

وهنا كنّى سبحانه بقوله { نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ } بأن رحم المرأة هو المكان المعيّن لزرع نطفة الزوج ، وليس أي مكان آخر ، لإختصاص الخبر : { حَرْثٌ لَكُمْ } بالمبتدأ : { نِسَاؤُكُمْ } أي المسند بالمسند إليه ، وذلك من فقه اللغة . وقوله سبحانه { فأتوُاْ حَرْثَكُمْ } يعني ما هو لكم ، المختص بكم ، يعني ليس حرث غيركم . إضافة إلى أن كلمة { فأتوُاْ } كناية عن المباشرة . وليس أن تلقح البويضات خارج الرحم ثم تعاد إليه . فالتلقيح خارج الرحم لا تفيده إطلاقاً كلمة ، { فأتوُاْ } وهي قيد شرعي في النص كبقية القيود الشرعية التي ذكرناها فيه .

فبناءً على ذلك كله ، تعتبر كل مخالفة لهذه القيود أو الحدود الشرعية أمراً محرماً تحريماً قطعياً ، من قبيل أن تلقح البويضة من رجل أجنبي بالنسبة لأمرأة ما ، أو محرم عليها ، ثم توضع البويضة في رحمها : ففي الأمر أربع جرائم : الأولى، أنها تلقت الماء أوالنطفة من رجل محرّم عليها ، ويعتبرهذا في باب الزنى . الثانية ، أنها لقحت خارج الرحم وذلك خلاف أمره تعالى { فأتوُاْ حَرْثَكُمْ } ، الثالثة أنها تحدٍّ وعصيان لله جلت عظمته ، لقوله تعالى :

{ أَوْ يُزَوِجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَـٰثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقيماً إِنَّهُ عَليمٌ قَدِيرٌ . سورة الشورى الآية 50 } .

الرابعة ، وهي ذات طرفين : المولود غير الشرعي ، والمجتمع الذي سيعيش فيه ، وهي متعلقة بالحالة النفسية التي

سيكون المولود مستقبلاً تحت وطأتها ، إضافة لعلاقته بالمجتمع ونظرة المجتمع إليه . وسنتعرض لذلك كفاية إن شاء الله عندما نتحدث عن تعليل التشريع .

أما الطبيب فمحكوم كذلك بشريعة الله ، وهو طرف أساس في تحمل المسؤولية ، ولكل واقعة حكم ، ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم .

وهكذا بالنسبة لبقية الإنجازات العلمية في هذا المجال ، أو المجالات أو التجارب من قبيل تربية الأجنة في الأنابيب وغير ذلك ، فجميع ما يتفرع عن هذا الموضوع ، يرجع فيه إلى الأمر الإلـٰهي الذي ذكرنا وهو قوله عزّ شأنه :

{ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فأتوُاْ حَرْثَكُمْ }

أما النساء اللواتي تحرم مقاربتهن حتى بخائنة الأعين ، فقد عيّنهن التشريع الثاني الذي ذكرناه آنفاً ، وهو قوله تعالى :

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ الأخِ وَبَنَـاتُ الأُخِت إلخ ... } راجع النص . فهو يعدّد ويحدّد بوضوح النسـاء أي (الصُهْر) اللواتي يحرمن على رجال معيّنين ، أي (النَسَبْ) حرمة أبدية ، تعتبر مقاربتهن للرجال المحرمين عليهن ، أو مقاربة هؤلاء الرجال لهن ، حتى بمجرد النظر بشهوة ، من أكبر الكبائر وأعظم الجرائم . أما ما يستطيع الأمناء على التشريع أن يرصدوه ، فيحال إلى القضاء وقواعده { وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَوٰةٌ يـَٰأُوْلِى الأَلْبـَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . سورة البقرة الآية 179 } . وأما ما لا يمكن رصده ، فعقوبته من الله العزيز الحكيم ، هـي في

الدنيا والآخرة ، أعظم تعذيباً وأعظم نكالاً ، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

تعليل التشريع وشرف الأبّوة والأمومة :

في تعليل التشريعين المتعلقين بموضوعنا ، اخترنا ثلاث مؤشرات قرآنية يلقين الضوء على عظمة ما يمكننا إدراكه من المقاصد الإلـٰهية وعناية الله رب العالمين بعباده ورحمته لهم ، أفراداً ومجتمعات .

وقبل أن نعرض للآيات ، نلفت إلى أن موقف التشريع من العلم ، هو أن يسدّد لا أن يقيّد .

والآن مع الآيات البينات في ثلاثة أقسام :

أولاً : { وَوَصَّيْنَا الإنْسـٰنَ بوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصـٰلُهُ فِى عَامَيْنِ أن أشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إلَيَّ المَصِيرُ . سورة لقمان الآية 14 } .

ثانياً : { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أوْزِعْنِى~ أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى~ أنْعَمْتَ عَلَيّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأنْ أعْمَلَ صـٰلِحاً تَرْضـٰهُ وَأدْخِلْنِي برَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّـٰلِحينَ . سورة النمل الآية 19 } .

ثالثاً : { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً

مَحْجُوراً . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً . سورة الفرقان الآيات 53 –54 } .

هذه الآيات تعلن بوضوح ، أن الإنسان مفطور ، مطبوع على أنه من تحصيل الحاصل أن يكون له أبوين : أب رجل وأم امرأة ، وأنه ابن حلال لهما . وأنه من البديهي أن يستمتع بذكرى أن أمه حملته جنينا بضعة أشهر ، وحضنته كذلك أشهرا ، كما يستمتع بأن يحنو عليها وتزداد محبته لها تبعاً لذلك ، محبة هي أصفى ما عرف الوجود من أنواع الحب بعد حب الله تبارك وتعالى . وكذلك يسعد بوجود أو يتذكر أن له أب ساهم في تربيته وتحمل مسؤولياته ، إنجاباً وطفلاً وصبياً ، وربما شاباً وكهلاً . ومحصلة هذه الآية الكريمة بالنتيجة أن الأبوين عانيا معاناةً كريمةً سخيةً ، في تربية ولدهما حتى أصبح رجلاً سوياً أو امرأةً سويةً ، وأن الله تبارك وتعالى من فوقهم جميعاً هو الأكرم وهو الأرحم ، إذ أوجد الجميع إيجاداً نافعاً مسعداً لهم ولمجتمعهم ولمستقبلهم حيث إليه المصير . هذا ما داموا في حلاله وليس في حرامه ، وفي طاعته وليس في معاصيه .

أما إذا اختلف الأمر ، ووجد إنسان ، ووجد أنه ابن أنبوب زجاجي أو إناء مخبري ، أو ابن أمرأة هي في الحقيقة جدته ، وأن التي حضنته ليست أمه التي حملت به ، أو أن زوج أمه الأصلي الذي كان مفروضاً أن يكون أباه ، كان عقيماً ، فهو ليس أبوه ، وإنما هو ولد من لقاح من ماء رجل آخر احتضنته أمه في رحمها ، فكان هو الثمرة ... إلخ ... فأين سيضع عواطفه ومشاعره البنوية والمسجلة في الكروموزوم الذي لقح البويضة التي أنتجته . وأين سيذهب بحنانه ؟ ثم هو مطبوع كذلك على أن يشكر ثلاثة الله عز وجل ، ثم أمه وأباه ، لأنه لا بد له حسب

ناموس الله وشرائعه من أبوين شرعيين ، يرتاح عبرهما الإنسان لكونه ابن حلال .

أما الله سبحانه وتعالى فقد شرّع وأمر ونهى ، ونصح للإنسان وأعطاه أغلى وأجمل ما يطلبه في حياته : الحرية ، حرية الإختيار ، قوله تبارك وتعالى :

{ لآ إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِن باللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لآ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ . سورة البقرة الآية 256 } .

ولكن أكثر الناس خالفوا الشرائع الإلـٰهية ، وعصوا الأوامر ، وما انتهوا عن حرام أو مأثم ، وما قبلوا النصيحة ، وأساؤوا استعمال النعمة الكبرى : الحرية ، فوجهوها بهوى الأنفس ، واتخذوا آلهة لهم : هوى النفس والشيطان ، والتجارب: فـي القانون والقضاء والحكم والسياسة والعلم وشتى ميادين الحياة ، ما يجوز من هذه التجارب وما لا يجوز . وليس الأمر سيان :

{ وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي~ أَسْتَجِبْ لكُمْ إنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . سورة غافر الآية 60 } .

وقال تعالى :

{ ... إنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلـٰكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ . سورة غافر الآية 61 } .

وذلك المولود غير الشرعي ، إلى من سيوجه شكره ؟ للأنبوب الزجاجي الذي ربي فيه ، أم للطبيب الذي كان سبباً من

أسباب جريمة إيجاده ، ممزق المشاعر ، متناقض العواطف . ثم انه لا محالة سيستعرض مع بواكير نضجه وتفكيره ، كونه ليس ابن حلال وإنما هو ابن حرام ، ثمرة زنى ، من أبوين غير صالحين ... وهات منه حقداً على نفسه وعلى أبويه وعلى المجتمع . والمجرمون الكبار في التاريخ ، هكذا يتحولون إلى خزانات من الحقد الحبيس ، والنقمة المكبوتة ، والغضب المدمر، (هذا مع البعد عن الله وفي غير المجتمع الصالح) فتتفصّم أنفسهم ، وتتضارب عواطفهم ، ويجنحون إلى الجريمة ، حتى وإلى التلذذ بالجريمة ، كلما وجدوا إلى ذلك متنفساً أو سبيلاً .

فلهذا كله ، ولغيره من الخطايا ، ننذر بالأخطار المدمرة المتمثلة بغضب الله وإنتقامه . فماذا يريد العلم والطب والقانون الوضعي في النتيجة ، من هذه الأنواع اللاشرعية من الحمل ، وتربية الأجنّة في الأنابيب ، وكذلك الزناة والشذاذ والفاحشون ؟ وماذا يريد قبل هؤلاء جميعاً ، مشرّعوا القوانين الوضعية ، حماة هذه الجرائم ، وحماة أسبابها ، والممهدون لها ؟ هؤلاء مسؤولياتهم أمام الله وملائكته والناس أجمعين ، أكبر وأعظم ، ولذلك عقوباتهم يوم {... لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ ـ أَحَدٌ . وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ ـ أَحَدٌ . سورة الفجر الآية 26 } . أدهى وأمر . ماذا يريد هؤلاء جميعاً ؟ ليثقوا ـ ومن يعش ير ـ أنه ليس أمامهم إلاّ الكوارث الرهيبة ، التي نشبت تبعاً لما اقترفوه ويقترفونه ، تجتاح تلك المجتمعات الساكتة عن مثل هذه الحريات المجرمة ، وغيرها من الفظائع اللاأخلاقية ، التي هي مخالفة دائماً لشرائع الله وتعاليمه . تلك الفظائع التي أثمرت خبائث ، أقلها السيدا والإيدز الذي يفتك بالملايين ، عبر الفواحش المحمية بالقوانين الفاجرة .

من هنـا إني أسمع قضقضة ودويّ انهيار الحضارة المريع . وبعيد ذلك كله :

{ إِنَّ السّاعَةَ لآتِيَةٌ لاّ رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ . سورة غافر الآية 59 } .

فبخصوص القسم الأول ، الآية الكريمة : { وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بوَالدَيْهِ ... } كلمة { الإنسَانَ } تعني المؤمن وغير المؤمن ، فيظهر أن الوصية فطرية ، أي أن الإنسان يولد ـ وهو منذ ولادته ، بل منذ جنينيته ، بل قبل ذلك ـ مطبوعاً على إرتباط حميمي ، ذي عمق خاص ، وقداسة خاصة بوالديه ، وبالأم أكثر من الأب ، بالضرورة ، لحمله وفصاله (عَن الرضَاع) في عامين تقريباً ، هذا من وجه ، ومن وجه آخر عمليّ ، مقصود للفطرة ، أن الطفل ، في العامين ، لا يكاد ينفصل عن أمه في ليلها ونهارها إلا لماماً ، هذا الشعور الحميمي المشبع بمحبة عميقة مميزة ، لا خلاف عليه ، فهو محصل بديهياً ومعروف عند جميع الناس ، كما هو معروف كذلك في البهائم ، مما يؤكد أن الوصية في الأساس ، هي كما قلنا ، فطرية ، يقابلها السلوك الغريزي عند البهائم .

إلا أن تربية الطفل عند الإنسان ، كما هو معلوم ، أشق وأعظم مسؤولية ، فهو لا يستطيع الإعتماد على نفسه بعد العامين في أمور كثيرة ، ليس فقط في مرحلة الصبا التي بعد الطفولة ، وإنما في مرحلة بداية الشباب ، حيث تصبح التربية أعمق وأكثر حساسية ومسؤولية .

من هنا كان تعليم الله تعالى ، إضافة لقوله : { أَنْ اشكُرْ لِي~ ولِوَالِدَيْكَ إلـيّ المَصير } قوله سبحانه :

{ وَقَضَىٰ رَبُّكَ الاَّ تَعْبُدُوَاْ إلاَّ إيَّاهُ وَبالْوٰلِدَيْنِ إحْسَـٰناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أحَدُهُمَا أوْ كِلاَهُما فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمَاً. واْخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَحْمَةِ وَقُل رَّبِّ اْرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغيراً . سورة الإسراء الآيات 23 - 24 } .

هذا كله ، في مضمون الآيات ، توجيهاً إلى إسعاد الوالدين ، وحفظاً لحقوقهما ، وفي ذلك سعادة المجتمع الإنساني الصالح ، بنعمة الأمومة والأبوة ، وتماسك الأسرة ، فحيث تكون الأسر مفككة ، يكون المجتمع كله مفككاً ، مما ينتج عنه حالات الفلتان ، والفوضى في جميع الإتجاهات . وليس أدل على ذلك ، من نتائج الإحصاء ، الذي تقوم به المؤسسات ذات العلاقة ، في مجالات الجريمة ، حيث تتفاقم الأرقام سنة بعد سنة ، من جرائم القتل حتى بين المراهقين (في نيويورك مثلاً لسنة 1991) إلى حوادث الإنتحار ، إلى جرائم الإعتداء على النساء في ليالي المدن الكبرى ، بعد خطفهن على الطرقات ، إلى فظائع الشذوذ الجنسي ، الذي أعطى الله سبحانه ، نماذجاً عن مدى سخطه على فاعلي هذه المنكرات ، بأن دمّر سادوم وعامورة مدائن لوط النبي عليه السلام . وسنعقد لهذا وحده إنشاء الله ، فصلاً يحاكم الحالات الرهيبة الحاضرة ، الدامغة وجه الحضارة المزعومة ، الحضارة التي تشمر عن ساعديها لقيادة العالم .

وعوداً إلى صلب الموضوع ، فإن ما يدعم المعاني التي ذكرنا بصدد الآية الكريمة وما بعدها ، عن أمر الله تعالى بإسعاد الوالدين ، وحاجة الإنسان الماسة ، إلى شعور المحبة والحميمية تعلقاً بهما ، هو قوله تعالى :

{ فتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أوْزِعْنِي أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي~ أنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أعْمَلَ صَـٰلِحاً ترْضَـٰهُ... . سورة النمل الآية 19 } .

هذه الآية الكريمة حكاها الله تبارك وتعالى عن سليمان عليه السلام عندما سمع صوت النملة وفهم قولها ، حيث قالت :

{ ... يَـٰأيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰن وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } { فتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قوْلِهَا وَقالَ ... الآية } فطبيعي أن تكون أول بارقة في ردة فعل الإنسان الموقن بالله عز وجل ، أن يذكر ربّه ويشكره ويحمده ، لقاء أي علم أو نصر أو عطاء ، أو أية نعمة ينعم بها الله عليه ، وهكذا فعل سليمان ، وإنما لماذا لم يكتف بالقول : { رَبَّ أوْزِعْنِي أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أنْعَمْتَ عَلَيَّ } بل تابع وقال : { وَعَلَىَ وَالِدَيَّ } عِلماً أن كلمة { نِعْمَتَكَ } تعم كل النعم ، قوله تعالى : { .. وَ إن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا .. . سورة إبراهيم الآية 34 } . والجواب ، هو إرادة التخصيص وتذوقه ، بعد التعميم ، وذلك لأن الإنسان المؤمن الموقن بربه وبأسمائه الحسنى ، يؤتى الحكمة وسرعة الخاطر ، وبعد النظر ، ورهافة الحس ، إلى آخر ما هنالك من المعاني الشفيفة العميقة في آن . قال تعالى :

{ وَمَا يَسْتَوي الأعْمَىٰ والبَصيرُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَـٰلِحَـٰتِ وَلاَ المُسِيىءُ قَليلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ . سورة غافر الآية 58 } .

وفي النجاحات الكبرى ، يود الإنسان أن يزف بشرى نجاحه إلى الأحب إليه ، وهنا الأحب إليه ربه عز شأنه . فماذا

يقول وربه الله هو المنعم ، فإذن لا أحسن من أن يقول : { رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ } فقال ، ثم إلى الأحب وهنا أتى التخاطر السريع ، فالأحب بعد الله ، نجده فيما أوصى الله ، نجده في الآية السابقة : { ... أَنْ اشكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ } فكذلك فعل سليمان فقال : { ... الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىَ وَالِدَيَّ } والخواطر السريعة مع هذا القول ، هي تذكار سليمان أن الله ربه العظيم رب العالمين ، قد آتاه أن يكون سويّاً نبيّاً ، ابن حلال ، من أبوين سويين صالحين .

في هذا الموقف ، مع تجليات نعمة الله وكرامته ، لا بد أن سليمان كان من السعادة بين جناحين خفيضين لربه الرؤوف الرحيم والعزيز الوهاب .

هذا مقصد أساس من مقاصد الآية الكريمة : إسعاد الأبناء الصالحين بالأباء الصالحين ـ أما ما يعلم خلاف هذه القاعدة فموكول إلى علم الله وحكمته ، وعدله ورحمته ـ ويستحيل أن يتم هذا الإسعاد بغير الطريق الشرعي ، الذي رسمه سبحانه وتعالى ، وأنذر مخالفيه ، إذا صدوا عن تعاليمه ، وبالتالي عن رحمته ، بخزي في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة بعذاب عظيم .

ومع استشعار الإنسان بالسعادة بعطاءات ربه ، يتمنى المزيد من التقرب إلى الله عز شأنه ، فلذلك زاد سليمان في دعائه :

{ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ } ولماذا كلمة { تَرْضَاهُ } ؟ لأن أيما عمل يعمله فرد أو جماعة لا يكون صادراً عن الإيمان بالله عز وجل ، يكون عند الله عملاً حابطاً ، أي ساقطاً لاغياً ، ليس له مردود لأصحابه من لدن الله ، ولو كان مدائن من الياقوت والزمرد ، أو فتوحات تُقال من أجل تقدم وإسعاد البشرية ، فكل ذلك يبقى مكانه يسبح بحمد رب العالمين ونعمته ، لأنه أصلاً

وفصلاً من علم الله سبحانه ومن ملكه وملكوته . ثم إن الله غنيّ عن العالمين .

فإذن لكي يكون العمل الصالح ذا قيمة ونفع لصاحبه في الدارين ، يجب أن يكون في سبيل الله جلّت عظمته ، مقبولاً عنده ، مشفوعاً برضاه .

ولعل سليمان بعد هذا ، اختلجت نفسه بفكرة مرعبة ، هي خشيته من أن يقصر عن أولياء الله الصالحين ، أو ألا يكون فيهم ، فأردف قائلاً : { وَأَدْخِلْنِي برَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّـٰلِحِينَ } . ويلاحظ من تركيب العبارة ، وخصوصاً كلمة { برَحْمَتِكَ } ، أن فيها حرارة غير عادية ، حرارة فيها دفء الدمعة الراجية ، التي ليست من العين ، وإنما من القلب ، من عميق الكيان ، لهفة ، وتضرعا ، وتأكيداً على الدعاء ، وإلحاحاً مؤدباً على رجاء الإجابة ، ثقة بالله ، وبرحمة الله ، وبإجابة الله ، وما أكرمه سبحانه وما أرحمه وهو العزيز الوهاب ، وهو الموحي ، وهو المعلم لهذا الدعاء وما يرافقه من مشاعر النبل والصفاء والخشوع ، وكذلك لبقية الأدعية على ألسن الأنبياء والمرسلين والأولياء ، وجميع عباده المتقين الأبرار ، ولا سيما التي في كتابه الكريم ، فهو سبحانه يتقبلها دون وسيط .

هنا قد يقول الإنسان العادي ، أولئك معاشر الأنبياء ، فيهم تلك الصفات ولهم تلك الميزات ، وأين نحن منهم ، يقول هذا وقد يتراخى في تعامله مع هذا الموضوع ، ولا سيما الدعاء جملة وتفصيلا . والحقيقة أن الدعاء هو قاسم مشترك بين الناس على إختلاف درجاتهم ، من النبي إلى الأعرابي ، كل حسب جهده وجهاده ووسع طاقته ، لا فرق بين الأقوام ولا الأجناس ، ولا الألوان ولا اللغات ، قوله تعالى :

{ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَـٰكُمْ إِنَّ اللهَ عليمٌ خَبيرٌ. سورة الحجرات الآية 13}.

ودليلنا على ذلك أن هذا الدعاء الذي دعا به سليمان ربّه عز وجل هو نفس الدعاء تقريباً ، الذي يدعو به أيما إنسان بلغ أشدّه واهتدى فيزيده الله هدى . كلا الدعاءين من فضله ورحمته وتعليمه ، وإليك الدعاء الثاني ، وهو ضمن آيتين تندرجان ضمن إطار البحث الكلي الذي نحن بصدده ، قوله تعالى :

وَوَصَّيْنَا الإِنْسَـٰنَ بوَالِدَيْهِ إِحْسَـٰناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وفِصَـٰلُهُ ثَلَـٰثُونَ شَهْراً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْني~ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي~ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحاً تَرْضَـٰهُ وأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَتِيَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وإني مِنَ المُسْلِمينَ . أَوْلَـٰئِكَ الّذينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَـٰبِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِدْقِ الّذي كَانُواْ يُوعَدُونَ . سورة الأحقاف الآيات 15 - 16 } .

وهو الذي مرج البحرين :

أما قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً . سورة الفرقان الآية 53 } . فالبحران المذكوران في الآية هما في الأصل ماء واحد حوَّله الله تعالى ماءين : عذباً آية في العذوبة وماءً مالحاً شديد الملوحة وجعل بينهما حاجزاً وحرَّم عليهما أن يطغى أحدهما على الآخر ، وجعل فيهما ، ما داما ممتثلين للنظام ، حقاً وخيراً وجمالاً .

وفي النظر العقلي ، يؤيد السلوك العملي ، أنه إذا قصد إليهما بخلط أو عبث أو إفساد ، كان النتاج فوضى لا تحمد عقباها : فيها الباطل وفيها الشر وفيها القبح .

وكما هو معلوم فإن لكثير من آيات القرآن الكريم ظهور وبطون ، وحقيقة ومجاز ، فمن ظهور هذه الآية ، حقيقة معانيها ، فلا كناية ولا مجاز ، فهذان مقصودان في تأويلها .

ومن هنا فحقيقة الظاهر معروفة على الأرض لدى كثير من الناس ، إذ المشهور مثلا عن نهر الاردن ، بعد أن يؤازره من لبنان نهر الوزاني والحاصباني ، يمر عذباً فراتاً في بحيرة الحولة ، ثم بحيرة طبريا وهي مالحة ، ومع ذلك يخترقها ثم يخرج منها عَجَباً عَذْباً فُرَاتاً ثم يدخل في البحر الميت وهو أشد ملوحة ، فيخترقه طولياً من أدناه إلى أقصاه ، ثم يخرج منه عذباً فراتاً كما أراده سبحانه تبارك وتعالى رب العالمين .
ومثل هذه الحقيقة التي هي من مصاديق هذه الآية الكريمة ، ما هو معروف على الساحل اللبناني بين مدينتي
صور والصرفند : ينابيع في قلب البحر ، تشكِّل بركاً واسعةً عذبةً طيبةً ، يقصدها الصيادون والمتنزهون في عرض البحر، فيها يغتسلون ، ومنها يشربون هنيئاً ويملأون القرب ، وبديهي أن بين هذه البرك ، أو البحيرات الصغيرة العذبة ، وبين البحر المالح المحيط بها من كل جانب ، حواجز جامعة مانعة ، جامعة للماء العذب ، مانعة من إختلاطه في المالح ، أو إختلاط المالح فيه ، تماما كما قال وكما شرّع سبحانه وتعالى : { وَهُوَ الَّذي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجُوراً . سورة الفرقان الآية 53 } . **صدق الله العظيم .**

أما تأويل الآية فهو ـ كما قيل ـ فيه مجاز وكناية ، وملخصه أن المجتمع البشري ، حيث أصبح فريقين : مؤمنين وكفاراً مرجهما الله عز شأنه كما أنهار تخترق بحيرات وبحاراً مالحة ، أو برك عذبة في محيطات ملحٍ أجاجٍ . وفي روعة التشبيه إلفات إلى قلة الماء العذب ، بالنسبة لكثرة المر المالح ، أي قلة المؤمنين بالنسبة للكفار ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ، فلا المؤمنون بإمكانهم الذاتي أن يهدوا الكفار ، ولا الكفار بإمكانهم الذاتي أن يضلوا المؤمنين . لأن الأمر مرجعه كله إلى الله تبارك وتعالى وحده . وكثيرة هي الآيات التي ترشد إلى هذه الحقيقة . ومع ذلك يتعايش هذان المجتمعان في مجتمع بشري واحد ، في رعاية الله ورقابته ، وفي طاعته ومعصيته ، في رضاه وسخطه ، في حبه وبغضه ، في تربيته وابتلاءاته ، حيث يستحيل الخروج من أرضه أو من تحت سمائه ، كما يستحيل تجاوز إرادته ومشيئته ، كما يستحيل الإنفلات من هيمنته وسلطانه ، وإلى أين : ! فسبحانه تعبُّداً ، وسبحانه إتقاءً ، وسبحانه تقرباً ، وسبحانه حبّاً .

أما إذا رضي المؤمنون بالتخلي عن الشريعة ، ودخلوا في مجتمع ما سميّ بالعلمنة ، وأخذوا بالقوانين الوضعية ، فهذا يعني الخروج من دين الله ، يعني الإخلال بالناموس الإلـٰـهي، فيحصل الخليط : ذوبان العذب بالمالح .

وإذا كان الله تعالى يحفظ المجتمعات البشرية ، كرامة للمؤمنين الملتزمين بشرعه وتعاليمه ، الحريصين على طاعته ، فحين تطمس الحدود ، ويخبط المجتمع خبط عشواء ، وتطغي الملوحة على العذوبة ، عندئذ لا يبقى للمجتمعات عند الله ولا كرامة ، إذ يصبح ولاء أكثر الناس فيها لغير الله ، للعلم التجريبي والقوانين الوضعية مثلاً ، عندئذ يأخذ الله كل مجتمع بذنوبه ، صغر المجتمع أم كبر ، كما يأخذ كل فرد بما قدمت يداه . تلك

سنة الله في الأولين والآخرين ، فإلى أين يذهبون ، متجاوزين حدود رب العالمين :

{ اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً . سورة فاطر الآية 43 } .

وأسمعه سبحانه في ذلك يقول :

{ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوَاْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . سورة العنكبوت الآيات 40 ـ 41 } .

والمخيف اليوم ، على مستوى الأرض كلها ، في نهاية هذا القرن العشرين الميلادي ، أن جميع المجتمعات بين قطبي الأرض ـ إلاّ اللمم ـ آخذة في هذا الإتجاه : الولاء لغير الله ، الولاء للديمقراطية الممسوخة الشوهاء ، ديمقراطية الأقوياء الظالمين ، ديمقراطية طواغيت الذهب والقوى النووية ، والتعاون على الإثم والعدوان ، الولاء للعلم التجريبي والقوانين الوضعية ، حتى أصبح التفلت من شرائع الله سمة العصر ، في الحكومات والشعوب . تجد ذلك في الإعلام الدولي الوقح ، الذي اشترته الصهيونية والإمبريالية ، بمعظم أجهزته الموجودة تحت السماء الدنيا ، فطغى وحرّف وزوّر ، وغش وكذب ، ووجه السياسات ،

وحتى أكثر الجماهير الببغائية ، إلى حيث يريد ، كما توجه السائمة .

وهذا مما يؤكد لنا قرب إنهيار الحضارة الفاجرة هذه ، ليحل محلها أمة تطيع الله وتخافه وتحبه ، وتجاهد في سبيله ولا تخاف لومة لائم .

هذا في قوله عز وجل وتبارك وتعالى :

{ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَىَ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىَ الْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ... سورة المائدة الآية 54 } .

وفي قوله عز شأنه :

{ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ. سورة النور الآية 55 } .

وهؤلاء الموعودون بحب الله وبنصره العزيز ، وباستخلاف الأرض ، هم قطعاً وبدون أدنى شك ، المؤمنون الموحدون من غير شرك ولا ظلم ولا فساد في الأرض . هذه الأوصاف على من تنطبق اليوم في شعوب الأرض ؟ هل تنطبق على اليهود ؟ أم تنطبق على النصارى ؟ أم تنطبق على العلمانيين ؟ (العلمنة هي فصل الدين عن الدولة) . أم تنطبق على الوثنيين

؟ أم تنطبق على الملحدين ؟ أم تنطبق على المسلمين ؟ ولو نسبياً في كل سؤال ؟!

فمن هم هؤلاء القوم الذين وعدهم الله سبحانه بالإستخلاف وبحبه ؟!

{ قُلِ انتَظِرُوَاْ إنَّا مُنتَظِرُونَ . سورة الأنعام الآية 158 } .

أما قوله تعالى :

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً . سورة الفرقان الآية 54 } .

فهذه الآية لها صلة مباشرة من حيث ربط المعاني بالآية السابقة ، قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ ... } فكلتاهما تشيران إلى أمر الله وتشريعه وقدرته : الآية الأولى : { هُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ ...} تشريع في الكون ، في الطبيعة ، من جملة التشريعات التي يقوم عليها الوجود ، مثل تشريع تركيب الهواء ، والجاذبية ، ودفع الماء إلى أعلى (قانون أرخميدس) وهو قانون الله ، إلى آخر ما هنالك من قوانين لا تكاد تحصيها موسوعة ، وأية موسوعة تحصي هذا الكون الوسيع ؟! .

كذلك قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا } هو تشريع في الناس ، أمر من أوامر الله عز وجل . وكما أن الماءين العذب والمالح إذا خلطا عمداً نشأ عن الخليط ماء منكر وفوضى في سلوك الماءين ، رغم أنهما في الأصل ماء واحد . كذلك الماءان اللذان جعلهما الله عز وجل نسبا

وصهرا ، أي رجلا وامرأة ، إذا خالفا التشريع الإلـهي ، أنتجا منكراً ، وحلت الفوضى مكان النظام والوئام ، رغم أنهما كذلك في الأصل ماء واحد .

وكلمة (نَسَبْ) في الآية ، تعني الرجل ، حصـراً ، لأنه ينسب إليه ، وهكذا أراده الله عز وجل . وكلمة (صُهْر) بضم الصاد وفتحها ، هي في الأصل اللغوي مـن الثلاثـي (صَهَرَ) بمعنى أذاب أو ذوّب ، وهي هنا في الآية الكريمة عنت نفس المعنى ، ثم صار المتعارف في معنى الصهر ، أنه المرأة وأهل المرأة ، تفريعاً للأصل المذكور . فكلمة (صُهْر) فـي الآية ، هي عمليـة إنصهار ماء الرجل بماء المرأة ، أي

النطفة بالبويضة[1] . وبما أن جينات الوراثة والكروموزومات هي التي تحمل صفات المولود من حيث جنسه ذكراً أو أنثى ، وصفاته الجسمية والعصبية عامة ، وكذلك النفسية الفطرية ، حتى عمره المكتوب ، ورزقه المقسوم له ، يعني شخصية الإنسان بكليتها ، حتى بكثير من قضاياها الغيبية . وبما أن هذه الجينات والكروموزومات هي من صلب الرجل ، وما مهمة المرأة إلاّ حضانة الناتج من الصَهر أو اللقاح إلى حين الولادة ، فلذلك ينسب المولود إلى الرجـل وحـده ، ولذلك كان الرجـل (نَسَبًا) والمرأة (صُهْراً) وهما الكلمتان الواردتان في قوله تعالى :

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قدِيرًا } .

أما تذييل الآية بقوله تعالى : { وَكَانَ رَبُّكَ قدِيرًا } فتستدعي سجود القلب وجميع الجوارح للعزيز الغفار ، والمنتقم

الجبار رب العالمين . فهو سبحانه كما جعل بين الماءين العذب والمالح حاجزاً من قدرته ، حاجزاً عجبا ، إذا حوفظ عليه كان الوجود الجميل والطبيعة الجميلة ، والسعادة والسلامة ، وإذا عصي فيه ، وأخرج عن فطرته ونظامه ، كانت البشاعة في الذوق والنظر والفكرة . وهكذا يحصل تماماً ، كما في الكون والطبيعة ، كذلك في الناس ، إذا أخلَّ البعض عاصياً وشوّه هذا الرباط المقدس ، الزواج الشرعي ، وتجاوز إرادة الله والحدود التي رسمها بعلمه وحكمته وقدرته ، تلك الحدود الجميلة

---

(1) في عملية التلقيح الطبيعي تندمج نواتا البويضة والحيوان المنوي وتمتزج موادهما الجينية وتتكاثر لتشكل المولود المقبل .

الشريفة التي ليست من حديد ، وإنما من شرف وتقوى وهداية إلى السعادة ـ كما في جميع شرائع الله ـ تلك الحدود التي تحترم حرية الإنسان وتحترم عقله وتحترم كرامته ، إذا أخلّ بها الإنسان كانت الدواهي ، كما نرى ، وكما يرى اليوم أولوا الألباب .. والآتي أعظم .

أما ما قد يحتج به البعض ، مبرراً الحمل غير الشرعي (المخبري وتفريعاته) بأنه ربما يكون عمل خير وإسعاد للمحرومين من نعمة الولد ، للعقيمين من الرجال والنساء . فهذا أيضاً قد أجاب الله سبحانه عليه ، وفنّد فيه القول ، قوله تعالى :

{ للهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إنَـٰثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ ، أوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإنَـٰثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ. سورة الشورى الآيات 49 ـ 50 } .

عليم بمصالح عباده ، بظروفهم ، ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، قدير على أن يصلح العقيم ويعطيه بعد إبتلائه ، ولو تطاول عليه العمر ، وقدير على أن لا يعطيه ، بل يعوّض عليه في الدارين ، ولا سيما { يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ، إلاّ مَنْ أتَى اللهَ بقَلْبٍ سَلِيم ٍ. سورة الشعراء الآيات 88 ـ 89 } . ثم هو قدير على أن يثيب ويسعد بأولاد وبغير أولاد ، اسمع قوله عز وجل :

{ فَلاَ تُعْجِبْكَ أمْوَالُهُمْ وَلاَ أوْلَـادُهُمْ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بهَا فِي الْحَيَواةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـافِرونَ . سورة التوبة الآية 55 } .

فمن يعاند القدرة ، قدرة الله ؟ وهل يعاند الله سبحانه إلاّ جاحد كافر لئيم ؟ ومن كان كذلك ، أليس من الحق والعدل أن يقاصص ويعاقب ، كل بقدر نيته وقدر عمله ، وقدر كفره : أفراد ومجتمعات .

فبناءً على هذا الذي بين أيدينا من أخبار زرع الأجنة ، وتربيتها ، خلافاً للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، مؤكدة بالتشريعات الإلـاهية ، واعتماداً على الخبرين المتعلقين بـ "أرليت شويتزر وبات أنطوني "[1] وأخبار تربية الأجنة في الأنابيب ، يصبح من البديهي في أربعة أخماس العالم تقريباً ، أي الدول التي تدين بالعلمنة ، أن يصبح أمر مثل هذا الحمل شائعاً ، فتحمل المرأة ـ عندهم ـ بماء إبنها وبويضات زوجته العقيم ، أو الأخت بماء أخيها ، تحضن له ولزوجته العقيم ، أو البنت بماء أبيها لمصلحة عشيقته ، مثلا ، التي يورثها وتورثه في قوانينهم العلمانية ... إلى آخر ما هنالك من تفريعات في هذا المجال .

كثيراً ما تَرْبَدُّ وجوه من أهل الضلالة ، جهلاً وعناداً وكفراً ، ونسمع مثل هذا القول :

وما المانع ؟! وما هذا الشرع الذي هو مجرد شكليات لا تسمن ولا تغني من علم . بل شكليات تلجم العلم ، تخنقه . فكفانا إختناقاً بالدين . بعد أن سبقنا أرباب العلم مسافات لن نستطيع قطعها ولو بشق النفس ، ونحن نقول : الدين .. الدين .. والشريعة الشريعة ..

---

(1) هما سيدتان : الأولى أميركية لقحت بماء زوج إبنتها فحملت توأمين . والثانية من أفريقيا الجنوبية وقد أنجبت بنفس الطريقة ثلاثة توائم : جريدة اللواء البيروتية 12 تشرين الأول 1991 .

- وإلى أين سبقونا ؟

- إلى السماء سبقونا ..

- لا بل إلى الهاوية ، إلى الكارثة ، إلى دمار هذه الحضارة بين عاملين : غضب الله بتفجير الطبيعة فوق رؤوسهم وتحت أقدامهم وعلى جنوبهم ، ولفِّهم بالغيوم الحرارية التي شكلت درعاً حول الأرض ، وإنشقاق السماء الذي يسمونه (الأوزون) الذي يزحف عليهم بالسرطان والذوبان ، ذوبان الجليد الذي يسجّر البحار ، التي ستغرق فريقاً كبيراً منهم ، دولاً ومدناً . ثم قتلهم لأنفسهم بأقصى ما توصلوا إليه من العلم ... رغم السلام المعلن المتوهم ، الذي يرقصون له رقصة .. الموت .

ويبقى أهل طاعة الله ، في حفظ من كل داهية داهمة ، وفي عافية من كل سوء ، بما فيه السيدا والإيدز ، والآتي على الفجار .. أعظم . قوله تعالى :

{ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ . سورة الدخان الآية 59 }.

وقوله عز شأنه :

{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىَ ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الْشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ، وَأَنِ اعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ . سورة يَس الآيات 60 - 62 } .

عبادة الشيطان طاعته ، وعبادة الله طاعته .
وقوله عزّ وعلا :

{.. وَمَنْ أَوْفَىٰ بمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً . سورة الفتح الآية 10 } .

صدق الله العظيم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ملاحظة :

بعد أن انتهينا ـ بفضل الله تعالى ـ من هذا البحث ، وجه إلينا هذا السؤال : هل في القرآن الكريم نص يمكن أن يكون رداً على الخبر العلمي الذي مفاده : تخليق ولد في رحم اصطناعي ، بعد أخذ النطفة من رجل ما ، فيكون الولد دون أم ، وإنما ينسب بعد إخراجه للحياة العادية ، إلى أب هو صاحب النطفة .

فقلنا في الإجابة ما قاله الله عز وجل :

{ .. أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَهُ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الأنعام الآية 101 } .

فتكون هذه الآية الرابعة في سياق تعليل التحريم . ولوضوح معناها الذي يدمغ الخبر والمترددين بين حليته وحرمته ، نكتفي بما قاله في بعض تفسيرها العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي رضوان الله عليه : " ... ومحصله أن لا سبيل لتحقق حقيقة الولد إلاّ إتخاذ الصاحبة . الميزان في تفسير القرآن ج 7 ".

ثم نختم بقول الله تعالى العزيز الوهاب :

{ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الْدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورَ . سورة فاطر الآية 5 } .

الفصل الثالث

الشذوذ الجنسي
بين
الفرضيات والمفهوم الديني

أولاً : الشذوذ الجنسي في الفرضيات :

أعني بالفرضيات ، تلك التي تصدر عن الفلسفة في بعض فروعها ، مثل علم النفس والتربية ، وكذلك التي تصدر عن علم العضويات والتشريح ، أي السيكولوجي والبيولوجي بشكل عام ، وهما المرجعان اللذان يستفتيان غالباً في المشاكل الناشزة والعادية .

فبخصوص علم النفس ، فإنه ما زال يدعي نظريات وآراء ظنية ، موقعاً الناس عامة ، في كثير من الحيرة والإرباك ، حيث أنه إلى الآن ، وبعد أكثر من مائة وخمسين سنة على نشوئه ، لم يقدم حلولاً ولا تفسيرات جذرية ، لأبرز المشاكل والمخاطر التي تجتاح الأفراد والمجتمعات ، ولا سيما بلاد الرفاه والتقدم الحضاري المزعوم .

ومن هذه المشاكل على سبيل المثال لا الحصر : القلق والأرق ، والأسباب المؤدية للإنتحار ، ثم الجرائم بشتى وجوهها وأحجامها ، وأخيراً وليس آخراً ، إتساع موجات الشذوذ الجنسي ، وفظائع المخالفات الجنسية خاصة ، والأخلاقية عامة ، والتي تكتسح بلاد الغرب وتتسرب من نوافذ العلمنة في الشرق ، تحت عنوان الديمقراطية ، هذه الفظائع التي تتسبب بالأمراض الفتاكة المفزعة ، والتي أبرزها الإيدز أو السيدا .

وفيما يتعلق بموضوعنا الشذوذ الجنسي ، قدّم علم النفس الكثير من النظريات منذ نشأته حتى اليوم ، وكما هو معلوم ـ شأنه في معظم المواضيع ـ فقد وقع في تناقضات ، نعرض عن تفاصيلها ، حتى لا نذهب وقتنا ولا أوقات العقلاء سدىً . ولكن لا بد من إيراد ولو نموذج واحد على ذلك : فمثلاً عندما يستفتى الطبيب النفسي ـ حتى ولو كان شرقياً ـ عن أسباب الشذوذ الجنسي في المجتمعات الشرقية ، فهو يجيب أن الأسباب هي الحرمان من الإختلاط بين الذكور والإناث وضغط الأهل وقسوتهم على الأولاد ، وإستعمال كلمة (عيب) أو ما شاكلها عند كل ملاحظة (جنسية) وبذلك يتشكل عند الأولاد عقدة الخجل ، ثم يحرمون من جميع المعلومات الضرورية التي تتعلق بالجنس .. إلخ .. فيحصل الشذوذ عند الجنسين ..

يقول هذا حتى (النفسيون) الشرقيون ، علما أنهم هم كانوا نشأوا في نفس الجو التربوي في البيئة الشرقية ، فإذن ينبغي ـ حسب قواعدهم ـ أن يكونوا هم شاذين .. وإلاّ .. فهم ضالون عن الحقيقة ، فيتحتم عليهم أن يراجعوا معلوماتهم ، ويحاسبوا أنفسهم قبل يوم الحساب ..

أما التناقض الذي أشرنا إليه في فرضيتهم هذه ، فهو أن الإختلاط بين الجنسين في بلاد الغرب ، معلوم أنه شأن عادي جداً ، ورغم ذلك فإن نسبة الشذوذ الجنسي تفوق بما لا يقاس ، ما هي عليه في البلاد الشرقية ، وكذلك نسبة الجرائم الجنسية بكل وجوهها ونعوتها وأوصافها .

فكيف نتعامل مع علم النفس ، ومع أي مذهب من مذاهبه المتناقضة وأية مدرسة من مدارسه التي بين الحين والحين يلغي بعضها بعضاً .

هذا بشكل عام ، وإن كان لعلم النفس بعض الإيجابيات ، والفتوحات المجدية ، التي نقدرها ، فإن أصحابها لا بد توصلوا إليها بعناية من الله وحده لا شريك له . ويكون ذلك لصدق النية، والإستنارة بنور الله { ..اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... سورة الأنعام الآية 124 } .

أما فيما يتعلق بتعليم الجنس في المدارس والبيوت ، وهو أمر قائم في أكثر الدول الواطئة السكندينافية (البلاد الأغنى والأرقى والأعلى نسبة من الشذوذ والإنتحار ـ السويد مثلاً) . كما انه ساري المفعول في الغرب ، ولدى كثير من المثقفين الشرقيين المتأثرين بالمناخ الحضاري الغربي ، فإن كثيرين منهم يدعون لتعليم الجنس في المدارس وفـي البيوت ، ولو عن طريق أشرطة الفيديو ، وكما أخبرنا أنها من مستدعيات غضب الله وسخطه ، ومن ثم تدميره البيوت التي تعرضها على رؤوس أصحابها ، ممن يراها ويتداولها .

ونحن سألنا : ولماذا هذا التعليم وهذه الإباحية ؟ وإلى هذه الدرجة ؟ يقولون لكي لا يقع الأولاد في العقد النفسية والشذوذ ، وليتعلموا كيفية (المواقعة) والإنجاب ، إنجاب أجيال قوية معافاة ، من العقد والأمراض والشذوذ الجنسي ...

ما شاء الله

وكيف توالد الناس في الماضي العريق ، ومن أين أتت مليارات الناس الذين توالوا على هذه الأرض ، وكذلك من أين جاؤوا بما اشتهروا به من القوة والعافية والفروسية ، والبراءة من فيروس عدم المناعة ومرضه القاتل ؟ وهم لم يتعلموا الجنس لا في المدارس ولا في البيوت . ولا توصلوا إلى عشر ما توصلت إليه حضارة العشرين ، من الشذوذ ، والغرق في وحول

المادية واللاأخلاقية ، والتمزق النفسي والبدني تحت وطأة (السيدا) ومشتقاتها . أفليس من الممكن أن يكون تعليم الجنس بدون مبرر ، وهذا الإنفلاش الجنسي الرهيب ، من أسباب هذا الطوفان البشع من الشذوذ والتسافد البهيمي .

أما بخصوص علم الأعضاء والتشريح والطب عامة هو علم حقيقي ، ليس ظنياً ولا نظرياً ، إضافة إلى أنه محترم وضروري . إلا أنه أحياناً يشطح بعيداً ، باحثاً في أعضاء الإنسان ، عن أمور وأسباب ، ليس لها أي صلة ، بالتركيب العضوي الإنساني ، من حيث أصل الخلقة الفطرية . ومع ذلك لا بأس بالبحث والتنقيب ، لأن هذا العلم في النتيجة ، أشبه ما يكون بعلم الرياضيات ، إذا لم يجد ، يقول لم أجد . كما فعل إختصاصي الدماغ العلامة (بنفيلد) ، في بحثه عن العقل في الدماغ ، وكانت رحلته الشهيرة ، مع الألكترود الكهربائي وخلايا الدماغ ، والتي استغرقت ثلاثين سنة ، ثبت له من خلالها أن الدماغ شيء والعقل شيء آخر ، ليس مادياً ، ولا هو في عضو من أعضاء الإنسان .

ولكن رغم ذلك كله ، لا بد من القول ، أن إختصاصيين في غير الدين ، يبحثون في أمور هي وثيقة الإرتباط بالدين ، هذه البحوث هي تجاوز من حقل المختص إلى حقل غيره ، هي تحول عن منهجية إنسانية واضحة . ثم انه من حق كل مفكر ، بل من واجبه أن يركن إلى الدين يستفتيه في شتى القضايا ، ولكن كذلك ، إما عن طريق الإختصاص ، وإما عن طريق المختصين من أولياء الله وعباده العلماء الصالحين .

فإن لم يجد الباحثون ، إجابات شافية ، في الدين ، لشؤون تتعلق بحكمته سبحانه ، وجب أن يتحولوا إلى العلم المنهجي التجريبي ، ومع ذلك سيظلون ضمن علم الله وهيمنته وتعليمه .

ومثال على ذلك أيضاً ، فيما نحن بصدده ، أن بعض الباحثين من الأطباء العضويين ، يحتملون ، ـ والإحتمال كما واضح أمر ظني ـ أن سبب الشذوذ الجنسي ، هو نقص في الدماغ ، في الجزء المسمى (تحت المهاد) وهو الجزء الذي يتحكم بالسلوك الجنسي عند البشر .

ونحن نقول من منطلق ديني ، أن الخطورة في ذلك أكبر من التصور ، فإنهم بهذا ، ـ إضافة إلى إباحة الشذوذ الجنسي قانونياً في إنكلترا ، بالتزاوج بين الذكور ـ يجدِّفون على الخالق عز وجل ، وعلى خلقه ، ويطعنون بعدالـة الله وعلمه وتشريعه ، لأن قضية الشذوذ الجنسي على أساس هذا الإدعاء ستعتبر أمراً مفروضاً على صاحبه من أصل الخلقة . وعلى ذلك سيقذفون إلى العمى والسفالة والضياع بالكثير من الرعاع ، الذين ينعقون مع كل ناعق ، ويميلون مع كل ريح ، لأن كل واحد منهم سيحدث نفسه بتجربة الشذوذ ، ليتأكد ممـا إذا كـان (تحت مهاده) كاملاً أو ناقصاً . والتجربة هذه ـ ما لم تمنع ولو بسلطان الضمير الأخلاقي ـ ستصبح بالضرورة عادة ، وبذلك يكونون قد خلقوا عذراً لجماعات الشذاذ ، سرعان ما ستأخذ به قوانين الغرب ، وحكامه وقضاته ، بحكم عاداتهم وسلوكهم في وضع القوانين والتعامل معها .

ولكن أين التشريع المسيحي ، وأين الكنيسة من تعاليم المسيح عليه السلام ؟ صحيح أن الكنيسة ، أخطأت أخطاء فظيعة بحق العلم والعلماء . وصحيح أنها سلكت في القرون الوسطى وما بعدها مسالك ، كان من حق الملوك والحكام وشعوبهم معها، أن ينتفضـوا عليها ، ويفصلوا تبعاً لذلك ، الدين عن الدولة . هذا على أن تتسلم الدولة وظيفة العدالة وتطبيق الشرائع . ولكن أن ينسف الدين كله من جراء ذلك ، كما فعلت الشيوعية ، أو أن تنسف الشرائع المسيحية برمتها كما فعلت دول الغرب عامة ؟!

وأكثر من ذلك ، فإن أكثر القوانين التي وضعها رجال القانون الغربيون ، تخالف الشرع المسيحي بشكل خاص ، مخالفة واضحة فاضحة ، كما تخالف الدين الإلـٰـهي بشكل عام . وليس أدل على ذلك ، من القانون الإنكليزي الذي يسمح بتزاوج الذكور ، ومثله في أميركا وغيرها من دول الغرب ، قانون توارث العشاق ، وكذلك توارث الشاذين ، المرأة من المرأة ، والرجل من الرجل ، إلى غير ذلك الكثير من المخالفات المنكرة .

لذلك كله أصبح الكيان الكنسي ، والمضمون التشريعي للمسيحية ، في حالة بائسة من الهوان والتردي . لدرجة أصبحت معها أكثر الكنائس الإنجيلية في أميركا تزحف بإتجاه اليهودية ، عدوتها الأساسية ، وعدوة المسيح عليه السلام ، وتقيم معها مداخلات تعتبرها مصيرية مشتركة ، وكذلك جملة من الكنائس الأوروبية والعالمية ، التي سيست ، وأصبح أكثرها بؤر مخابرات للأجهزة الحاكمة ، كما كان الأمر في الإتحاد السوفياتي ، وذلك الذي استدعى غضب الله عليه ، وما زال لتاريخه في بداية العذاب .. الدنيوي إذ أن للآخرة عذاباً آخر . إلاّ من تاب وآمن وعمل صالحاً ، وقال إني من المسلمين لله رب العالمين .

ثم هذا العجب الذي نجده في القيمين على الإعلام ، بجميع أجهزته ، وأرباب الأقلام فيه ، فهم في بحثهم عن حلول للمشكلات ، والسؤال عن أسباب الكوارث الإجتماعية ، تراهم أول ما يتجهون إلى جميع أهل الفكر والإختصاص ، إلاّ الفكر الديني والإختصاص الديني .

وأيضاً لا بأس بذلك ، بل هو المفروض إذا لم يستثن الدينيون . وإذا إندرج جميع هؤلاء تحت عنوان : أهل الفكر المؤمن الجاد الرصين . فهؤلاء جميعاً هم أركان المجتمعات وركائزها . هم من أولي الأمر الذين ترتكز على أمثالهم الدول والأمم ، لكن بشرط السلامة والكرامة : السلامة من كل داء

نفسي ، بما فيه الشذوذ .. وما أكثر الأدواء النفسية ، وما أكثر الشاذين (فرضوا قبول ترشيحهم لإنتخابات بلدية .. في أميركا، وقد أعلن المرشح على الملأ كونه من الشاذين ..) ، هذا شرط السلامة ، وأما شرط الكرامة ، فأن يكونوا نظيفي الأنفس ، وعلى الأقل خلوقين ، هذا إذا لم يستطيعوا أن يبلغوا الغاية الحقيقية والخلاص ، يعني إذا لم يستطيعوا أن يكونوا مؤمنين ربانيين . لأن الإنسان بدون إيمان بالله الواحد الأحد ، ولو كان خلوقاً ، فإنه يبقى ناقصاً حابطاً عمله ، وبالنتيجة من الخاسرين .. مؤبداً .

ثانياً : الشذوذ الجنسي في المفهوم الديني :

وأقصد بالمفهوم الديني ، عامة الدين الذي أنزله الله سبحانه للناس ، قال تعالى مخاطباً الناس ورسوله محمدا (ص) :

{ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِى~ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ وعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى~ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ . سورة الشورى الآية 13 } .

وقوله تعالى :

{ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ.. . سورة المائدة الآية 48 } .

وموضوع بحثنا ، الشذوذ الجنسي ، هو من أوضح الدلالة على ما نقول ، من حيث استنكاره وتحريمه في جميع الشرائع المنزلة من لدن الله تبارك وتعالى . إلاّ أن الإسلام الذي يمثل أصالة الدين المنزل ، والهيمنة على جميع ما أنزل من البداية إلى النهاية ، قد تصدى لهذا الأمر ، كما لغيره ، بإهتمام أكبر ، تشريعاً ، وتعليلاً للتشريع ، ورسم حدود وعقوبات . لذلك كانت المجتمعات الإسلامية ، أقل إبتلاءً كما هو واضح ، في جميع حالات الشذوذ والإنحرافات الجنسية وغير الجنسية .

ولو أن المجتمعات غير الإسلامية ، تتعامل بأريحية مع هذا الدين العظيم ، لكانت تلافت أخطر الأمراض التي تفتك بمجتمعاتها ، كما وتلافت سخط الله .. وسوء العاقبة .. والغضب المدمر الآتي .. ومع ذلك فما زالت الفرصة متاحة مع هذه الكلمات .. وغيرها كثير .

من هذا المنطلق ، وفي ظل هذا المفهوم الديني ، نقسم قضية الشذوذ الجنسي إلى تعريفين : خاص وعام .

أما التعريف الخاص ، فيعني دينياً إتيان الذكور للذكور ، ويشير ضمناً ببلاغة الأدب الديني والأخلاق الدينية ، إلى ما يقابل ذلك من علاقة المثلين الآخرين ، أي المرأة بالمرأة ، كما يرتب على هذه العلاقة ، نفس الغضب ونفس التحريم ، ونفس العقوبات ، أي جميع ما يرتبه إتيان الرجال للرجال .

وهذا التعريف الخاص المتضمن العلاقات الشاذة ، بين المثلين ، يستفاد من القرآن الكريم ، وبالتحديد من قصة قوم لوط النبي عليه أزكى الصلاة والسلام .

هذه القصة أوردها القرآن الكريم ، بين إجمال وتفصيل ، ذاكراً لوطاً وقومه في حوالي أربع عشرة سورة بالآيات البينات ، وهذا يدل دلالة كبيرة ، على أهمية الحدث التاريخي ، الذي تورط فيه لأول مرة في تاريخ البشرية ، قوم هذا النبي الكريم ، وأن هذا التورط هو من أكبر الآثام ، وأنكر المنكرات ، مما استدعى ـ كما سنرى من الآيات الكريمة ـ إنزال العذاب الشديد بهؤلاء القوم ، بأن خسف الله بهم ، وقلب مدنهم وبيوتهم رأساً على عقب ، وأرسل عليهم قذائف من السماء ، جعلت ديارهم قاعاً صفصفاً ، ليذوقوا عذاب هذا الأدنى متصلاً بعذاب الآخرة ، مخلدين فيه كما سنرى .

ولأهمية هذه الكارثة التاريخية ، على مستوى شعب آمِنٍ ذي مدن عامرة ومدنية ، ولأن في القصة دروساً بليغة مخيفة ، ولأن تفصيلها في الآيات البينات ما يهز النفس من أعماقها ، وما تقشعر له الجلود ، ولأن الله عز وجل ، أراد من إثبات القصة وآياتها أن يجعلها حجة على أعناق الناس ، بحيث أنهم إذا فعلوا فعل قوم لوط خزاهم في الدنيا والآخرة ، وعاقبهم كما عاقب أولئك القوم ، هادماً عليهم عمرانهم ومدنهم ومدنيتهم . لذلك كله ، قررنا بإذنه تعالى ، أن نعتمد سبعاً من السور ذات العلاقة ،

يتكامل فيها الخبر والصورة ، حيث يظهر الحدث جلياً بوجهيه : الإيجابي ، وهو المتعلق بالرجل الصالح ومن آمن معه ، والسلبي ، وهو المتعلق ببقية القوم الفاسقين .

قال تعالى في سورة القمر :

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْءَانَ لِلذِّكرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنُّذُر. إنَّا أرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إلاَّ ءَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَـٰهُمْ بسَحَرٍ . نِّعْمَةً مِّن عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ . وَلَقَدْ أنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَواْ بالنُّذُر . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيفِهِ فَطَمَسْنَا أعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابي وَنُذُر . وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابي وَنُذُر . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلَ مِن مُّدَّكِرٍ . سورة القمر الآيات 32 – 40 } .

في هذه الفقرة من سورة القمر ، نرى الآيـة الأولـى : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرْءَآنَ لِلذِّكرِ فَهَلْ مِن مّدَّكِر } تحدُّ الفقرة في بدايتها ونهايتها ، كما تحدُّ كل فقرات السورة بشكل عام . هذه الآية تتطلب منا وقفة تؤدي بعض حقها ، قبل الكلام عن بقية

الآيات . فقوله تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرْءَآنَ لِلذِّكْرِ .. } إشارة أولاً إلى الفارق بين الله وبين غير الله من سائر ما خلق سبحانه . فالله هو الذي لا إلـه إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، والذي له الأسماء الحسنى وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، والذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ، والذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وله العرش العظيم ، هذا في مجال ما تدركه طاقاتنا من المفاهيم ومن العوالم المحسوسة ، ولكن الحقيقة أعظم

وأعظم في مجال غير المحسوس ، ولا يعبر عنها ولا عن لا نهائيتها ، في ملكه أو في ذاته إلاّ كلمة التوحيد الأكبر **" الله أكبر "** . وثانياً إلى الفارق بين هذا الرب العظيم ، وبين عامة خلقه . فبما أن القرآن من كلام الله ، وآياتـه كلـمات الله { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ وَهُوَ الْسَّميعُ العَليمُ . سورة الأنعام الآية 115 } . وبما أن الفارق بين الخالق والمخلوق ، هو فارق يستحيل قياسه ، هو فارق بلا قياس : فارق بين الحق المطلق والخير المطلق والجمال المطلق ، وبين المخلوق المحدود في جميع معطياته ، والفقير في جميع حاجاته . فكذلك الفارق بين كلامه عزّت عظمته ، وبين كلام المخلوقين ، هـو فارق بلا قياس ، فكما أنه سبحانه في ذاته ، كذلك سبحانه في كلامه ، أي كما تنزه بذاته عن المخلوقين ، كذلك تنزه بكلامه عن كل كلام غير كلامه . نعم ، هكذا ، فإن في جملة ما صدر عنه في عليائه ، هذا القرآن الذي هو الأعلى والأمثل والأجمل والأكمل وبدون تحديد ودون قياس ، في مقابل كل قول وكل كلام من أقوال الملائكة والإنس والجن وبقية الخلق مما نعلم ومما لا نعلم .

هذا القرآن الكريم ، وهذا القرآن المجيد ، وهذا الكتاب الذي لا ريب فيه تنزيل من رب العالمين ، الذي هو كلام الله ، يسّره سبحانه لعباده الذين من لحم ودم ، وحركات وسكنات ، وطعام وشراب وشهوات ، يسره لهم ليقرأوه ، ويذكروا الله فيه ، ويتعلموا منه ، ويتحصنوا به ، ويحصلوا بتوسل ما فيه على رضا الله جل وعلا ، فإن في رضاه سعادة الدارين .

وليست نعمة عادية هذه ، من نعم الدنيا والآخرة ، نعمة أن يكون كلام الله في عزته وملكوته وجبروته ، ميسراً للإنسان أن يقرأه بحواسه المحدودة المعروفة . نقول هذا غير ناسين نعمة العقل ، فإن لنا فيه كلام آخر في مقام آخر .

ثم ماذا ؟ ثم ان في هذه الآية { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَآنَ لِلذِّكْرِ .. } وخاصة في الكلمتين الأخيرتين منها { فَهَلْ مِنْ مُدّكِرٍ } نجد العجب : نجد التحضيض على القراءة ، والنصح بها ، والترغيب فيها ، والإغراء بفوائد لا تحصى ، والعتاب على التراخي أو التخلي عنها ، والتوبيخ لغير الذاكر والنذير لغير المتعظ ، وتلويح بالعلم ، والحكمة ، والفهم والنباهة ، والنجاة أو الخسران ، والنعيم أو العذاب إلخ .. كل ذلك ، كل هذه المعاني وفوقها مزيد ، يحسها عندما يصل إليها قارىء القرآن المستنير بربه ، يجدها في هذا المقطع من الآية ، المؤلف فقط من كلمتين ، قوله تعالى : " فهل من مدّكر " .

ثم ماذا ؟

ثم عرض سلوك أهل الحق ، وسلوك أهل الباطل ـ من جملة ما في القرآن الكريم ـ وما يترتب على السلوكين من ثواب وعقاب في الدارين .

وهكذا ندخل برهبة وخشوع ، في معرض الحكاية التي في الآيات الآنفة : { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنُّذُر } قوم أرسل الله عز وجل إليهم نبياً منهم ، هو لوط عليه السلام ، أرسله إليهم ليتقوا الله وينتهوا عما هم فيه من كفر ومنكر وفجور ، ومخالفة لشرائع الله ، وليصدقوا أن الله سيعذبهم عذاباً شديداً إذا لم يصدقوا ولم ينتهوا . فكذبوا هذا الرجل الصالح الذي لم يكلفهم لنفسه شيئاً ولا لأهله ، ومضوا في غيّهم وفجورهم الأوسخ في التاريخ ، فأرسل الله عليهم { حَاصِباً } . لعلّها ريح عاتيه ترميهم بحجارة معدّة للسفلة والأوغاد الذين لا يهمهم التفريق بين ما حلل الله ربهم وبين ما حرّم . من السماء رجموا رجماً بالصخور والحجارة ،

وأية حجارة : حالة من حالات القصف الشديد ، قد يفهمها أكثر جيل القرن العشرين ، الذي عانى من قصف الطائرات أو المدافع أو الراجمات ، أو عاينها أثناء الحروب المحلية والعالمية ، وشتان بين راجمات عمالقة السماء وراجمات أقزام أهل الأرض .

أهلك القوم جميعاً ، إلا لوطاً عليه السلام وأهل بيتـه ـ عدا امرأته كما سنرى في الآيات الأخر ـ نجاهم الله عز شأنه ، إذ أمرهم الملائكة بالخروج من بين القوم في أواخر الليل ، نجاهم سبحانه بنعمة من عنده ورحمة ، لأنهم كانوا مطيعين لأوامره ، صابرين على ما ابتلاهم به ، شاكرين لنعمائه .

ثم في الآيات ، يكرر سبحانه الحديث عن صفات القوم ، ومواقفهم المستدعية لغضبه وعذابه : { وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَواْ بِالْنُّذُرْ } ، وأكثر من ذلك وأعظم : { وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرْ } وهكذا إلى أن وصل بهم الأمر إلى التصميم على إغتصاب ضيوف الرجل الصالح . مع ما هو معروف عن حرمة الضيف وحرمة الدار ، فضلا عن حرمة الفاحشة المنكرة ، فاستحقوا بذلك عذابين : عذاباً خاصاً هو الذهاب بأبصارهم طمساً على أعينهم ، وعذاباً عاماً ، منه هذا العمى الذي مسحهم به ، إذ هو أول مرحلة ولون من مراحل العذاب العام وألوانه: { فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرْ } تذكيراً لهم بأنه سبحانه حذرهم من تماديهم ، ونصح لهم ، وأنذرهم هذه العاقبة . إلا أنهم لم يرعووا .. ثم ينتهي تقطع المراحل ، مراحل العذاب : بين العمى ، والخوف والرعب ومقدمات الدمار ، وإنقلاب المدن رأساً على عقب ، والقصف والرجم ، إلى أن يدخلوا في المرحلة النهائية ، وهي استمرارية العذاب : عذاب الدنيا متصلاً بعذاب الآخرة ، وهذا معنى قوله سبحانه : { وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌ } أي ثابت مستمر ودائم .

ويكرر جلت عظمته القول : { فَذوُقوُاْ عَذاَبي وَنُذُرْ } كتكرار قوله تعالى : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْءَآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر } .

والإنسان ببساطة ، عليه أن ينطلق من هذه الوقائع التاريخية ، والآيات والنذر المستمرة إلى قيام الساعة ، ليقول : يا أهل القرن العشرين ، في القارات الخمس ، ولا سيما قارات الفحش والفجور ، والمجتمعات المخبّلة بالحرام ، السكرانة بالنعمة والتخمة .. والجنس ، حذار ! حذار ! وخاصة من هذا الذي أسميتموه الشذوذ الجنسي إنه من مستدعيات مقت الله لكم ، وسخطه عليكم . إن الله سبحانه يقرعكم بالتوبيخ ، وينذركم بالعذاب ، بنفس هذه العبارات وهذه الآيات التي أنذر بها قوم لوط عليه السلام ، هي لكم فاعتبروا بقوله سبحانه : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْءَآنَ لِلذِّكْر فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر } . فالقرآن ليس حكراً على العرب ، ولا على المسلمين وحدهم ، هو رحمة للعالمين .. وهم به ملزمون ومطالبون ، ولا سيما بعد الترجمة ، وبعدما صغرت الأرض ، وأصبح الإعلام بالأقمار والتلفزة في كل دار، فسارعوا واعتبروا . وحذار ، حذار ، من أن تكونوا بعد أن ينزل العذاب بكم ويدمركم ، مصاديق لقوله : { وَلَقَدْ أنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَواْ بالنُّذُر } { فَذوُقوُاْ عَذاَبي وَنُذُر } { وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذاَبٌ مُسْتَقِرٌ . فَذوُقوُاْ عَذاَبي وَنُذُر . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْءَآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر .. }

يا دول العلمنة ، والإنفلات من شرائع الله ، يا شعوب حضارة الجنس .. والعربدة ، لكأني بعد سنوات ، بعد أن تصبح أنظمتكم خبراً من الأخبار ، أقرأ في هذا القرآن المجيد

قوله تعالى : { وَلَقَدْ صبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌ } فأتذكركم .. ولست أدري إن كنت سأبكي يومئذ ، وإذا فعلت فبأي دموع ؟ بدموع الأسى والأسف عليكم ، أم دموعِ الحمدِ لِلّهِ ؟

يا وثنيي القرن العشرين :

{ أكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰئِكُمْ أمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ. أمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الْدُّبُرَ . بَلِ الْسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أدْهَىٰ وأمَرُّ . إنَّ المُجْرمينَ فِي ضَلَـٰل وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّار عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ . إنَّا كُلَّ شَـيءٍ خَلَقْنَـٰهُ بقَدَر. سورة القمر الآيات 43 - 49 } .

ثم نعود إلى بقية الآيات في السور الست الباقية ، التي ذكرناها آنفاً ، ندرجها بدون أي تفسير منا ، فهي بحمد الله يفسر بعضها بعضاً ، وبها تستكمل الحكاية ، حكاية القاسم الوثني المشترك ، بين فجار الماضي وفجار الحاضر المعاصر ، الذي أكاد أسمع أصوات تشققه وتصدعه وإنهياره على أنوف أعداء الله ، الأنوف التي بلا أنفة ولا شهامة ولا كرامة ، كما تستكمل بها ، أي بالآيات ، العبرة .. لمن يعتبر .

فإلى ومضات الآيات ، وروعة التبليغ ، وعظمة القرآن .. إلى شرف التقوى .. تقوى الله الأعز الأجل الأكرم .. إلى أشرف الكلام :

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْءَآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدّكِر } .

1) في سورة العنكبوت :

{ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ ٱمْرَأتَـهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ . وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِىءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ . إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ الْسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ . وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةَ بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . الآيات 31 – 35 } .

2) في سورة النمل :

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ الْنِّسَآءِ بَلْ أَنْتُـمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأَنْجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ الْغَـٰبِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ المُنذَرِينَ . قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الّذينَ اصْطَفَىٰ ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . الآيات 54 - 59 } .

3) في سورة الشعراء :

{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْرَّحِيمُ . كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاْتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُون . وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ . أَتَأْتُونَ الْذُّكْرَانَ مِنَ الْعَـٰلَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ . قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِنّ الْقَالِينَ . رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ . فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَـٰبرِينَ . ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَّرِينَ . إِنَّ فِي ذَّٰلِكَ لأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ . وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . الآيات 159 - 175} .

4) في سورة الحجر :

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلوُنَ . قَالوُاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلاّ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِين . إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَـٰبرِينَ . فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ . قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَـٰكَ بِالْحَقّ ِ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ . فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَاْتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَاْمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابرَ هَـٰؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ . وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ . قَالَ إِنَّ هَـٰؤُلآءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ . وَاْتَّقُواْ اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ. قَالُواْ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ . قَالَ هَـٰؤُلآءِ بَنَاتِيَ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الْصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ . وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ . الآيات 57 - 77 } .

5) في سورة هود :

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمُ الرَّوْعُ وَجَـآءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ . يَـٰإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَـآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ . وَلَمَّا جَـآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِىءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَـآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلاَءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ . قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ. قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوَاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرِأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ . الآيات 74 - 83 } .

6) في سورة الأعراف :

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن

دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ . وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ . الآيات 80 - 84 } .

أما التعريف ، أو العنوان العام لشذاذ الجنس ، فهو أن كل نوع من أنواع الإستمتاع الجنسي ، يخرج عن مضمون التشريع الإلـٰهي الذي في قوله تعالى :
{ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ ... . سورة البقرة الآية 223 } . هو عملية زنى ، والزنى معروف أنه من كبائر المحرمات ، فيما شرع الله من بدء الخليقة إلى قيام الساعة ، وعليه حدود وله عقوبات ، تتناسب مع وصف الجريمة ودرجتها ، سواء كان بين المثلين ، أو ما يحصل بين عازب وعازبة ، أو بين أيم ومحصن ، أو ما يقع بين المحصنين (المتزوجين) من الجنسين ، أو ما كان أفظع من كل ذلك ، كالزنى بالأم أو بالبنت أو بالأخت أو بالعمة أو بالخالة أو بزوجة الإبن أو بزوجة الأب أو بأم الزوجة أو بالربيبة ، أو بأية قريبة من المنصوص عليهن في القرآن المجيد [1] . وبديهي أن العقوبات والحدود ، في مثل هذه الحالات الأخيرة ، هي بالضرورة أبلغ وأشد نكالا :

{ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰأُولِي الأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . سورة البقرة الآية 179 } .

هنا قد ينتفض بعض الناعمين الناعسين ، وطالما انتفض أمثالهم من المتَمَيّعين عند استعراض العقوبات في الإسلام العظيم .

ولن نناقش معهم الأمر مطولاً ، بل نكتفي بالقول أولاً وببساطة ، أنه ما دام النص في القصاص هو أمر إلـٰهي ، فإنا سننفذه ولو انشقت حناجر وحوصلات الضفادع والببغاوات . ثانياً ، انه لو قتل بالسيف أو بالحجارة أو بالرمي من شاهق ، سافلان فقط من جماعة الشذوذ الجنسي ولو مرة في كل مجتمع أو كل جيل ، أو مرتين أو ثلاث ـ إذ غالباً لا يحتاج الأمر

---

(1) أنظر سورة النساء الآيات 22 -23 - 24 .

لردع المجرمين أكثر من ذلك ـ لنظفت المجتمعات دهراً ، ولما كنا سمعنا بالإيدز ولا السيدا ، ولا كانت عانت المجتمعات من تأثير الهجمة اليهودية اللاأخلاقية ولا سقط الذين في قلوبهم مرض في هذه الوحول الملعونة المتحركة ، من أنواع الزنى والسَّفاد الرهيبة .

ولو أن الناس أدركوا ـ ويجب أن يدركوا ـ مدى سخط الله وغضبه من هذه الفظائع والفضائح والموبقات ، لرفعوا أيديهم جزعاً وغطوا بها رؤوسهم ، تحسباً لقرب الرجم من الأرض والسماء .

إلاّ المتقين فإنه سبحانه ينجيهم قبل إنزال العذاب .

أفما آن للناعمين الناعسين أن يخشوشنوا ويصبحوا .. رجالاً. فإن النعم لا تدوم ؟

وثالثاً ، في مقابل ما حكم الله وصنَّف من أنواع القصاص لأنواع الجرائم وهو أحكم الحاكمين ، لا نجد في تاريخ المسلمين ، الممتد ـ محكوماً بالشريعة الإسلامية ما ينوف على سبعمائة سنة ـ أكثر من بضع حالات من وضع الحدّ رجماً بالحجارة ، لبضع جرائم زنى ، ومثلها فيما لا يتجاوز عدد الأصابع ، قطعاً ليد سارق أو سارقة ، يعني بكلام آخر ، أن المجتمعات الإسلامية ،

عاشت مئات السنين ـ وما زالت بنسبة عالية ـ نظيفة من كل أنواع الموبقات ، من مثل ما نسمع اليوم ونرى ونقرأ في شتى أجهزة الإعلام العالمية ، عن طوفان الجنس والشذوذ الجنسي ، وجميع أنواع الجرائم التي تحدث في وضح النهار وتحت عين الشمس ، وعيون حكام العالم وقضاته ونسائهم والرجال ، وعيون أطفال .. العالم .

أما الأطفال فمبرأون حتى يبلغوا سن التكليف أو حتى يدركوا . . ويتحمل الكبار المسؤولية ، أدبياً ومادياً .

وما النظافة والأمن والعافية ، والأخلاق والشهامة والكرامة والفروسية ، التي رافقت المجتمعات الإسلامية وبنسبة ممتازة حتى أيامنا هذه ، إلا بنعمة الشرائع الإلـٰهية ، حيث أن المسلمين الأسوياء يحتكمون ويتحصنون نفسياً بهذه الشرائع ، ولا رقيب إلاّ الله ، وكفى بالله رقيباً .. وكفى بالله حسيباً ..

أما المجرمون والشذاذ ، والذين في قلوبهم مرض ، فلهم تنفيذ العقوبات كما في النص الإلـٰهي ، ما دام لا ينفعهم ولا يردعهم لا الوعظ بالحسنى ولا النذير ولا العلاج ، ولا حتى الشرف الشخصي ، ولا شرف الأسرة ، ولا شرف المجتمع ، فماذا ينفعهم ويردعهم إذن ؟ أما أن السبب ما دام هو الشهوانية الشريرة المتهورة والأنانية والسفالة ومشتقاتها ، فلا ينفع معهم إلاّ البتر أو الكي . عند ذلك فقط ، سنرى ببساطة ، كيف ستسقط الأعذار الوهمية التي اخترعها لهم المخترعون .

ثم ان في القسوة الظاهرية في التشريع الإلـٰهي ، رأفة باطنة بالأفراد والمجتمعات ، ومنهجية تربوية ، لم يستطع بعد أن يدركها لا علماء النفس ، ولا علماء التربية ولا علماء الإجتماع ، لأن الغربيين منهم ، يتعاملون معها بعداء مسبق ،

بسبب عدائهم أصلاً للإسلام ، أما الشرقيون منهم فعداؤهم كذلك، لكنما هو نتيجة ضعف الشخصية ، والتبعية ، والتلقين .

والحقيقة أن هذه القسوة المظنونة ، ما هي بنتائجها إلاّ رحمة للجنس البشري كله . فالمجتمع الإنساني السوي ، إنما هو بمجموع أعضائه الأسوياء من الناس ، تماماً ، كما الإنسان الفرد السوّي ، فلماذا يقبل ويرضى الطب النفسي ، والعضوي ، والفلسفات وكل وجوه الفكر الحضاري ، أن تستأصل الكلية الفاسدة من جسم إنسان ما ، أو تبتر يده أو ساقه ، أو تقلع عينه ، أو يزال قلبه ويوضع مكانه قلب كلب أو خنزير ، إذا أمكن . إلخ .. وذلك كله حتى يسلم سائر بدنه ، إذ أن عضوه الفاسد ، إذا أبقي على فساده ، يسمم الجسم كله ويدمر صاحبه .

كذلك المجتمعات إذا أبقت على أعضائها الفاسدين الذين يسممون المجتمع كله .

فلماذا يقبل الفكر الإنساني والقوانين الوضعية بإستئصال العضو الفاسد من جسم الإنسان لتسلم بقية أعضائه ، ولا تقبل أن يستأصل العضو الفاسد من جسم المجتمع ليسلم سائر أعضائه ، هذا المجتمع الذي أكثر ما تكون مسؤوليته في أعناق أولي الأمر ، أي الحكماء والحكام . سواء كان فساد العضو الإجتماعي شذوذاً جنسياً خاصاً أو عاماً ، أو كان تحت أي عنوان من عناوين الجريمة والأمراض الإجتماعية ومسبباتها .

وهنا ينبغي أخذ العلم ، بأن التشريعات الإلـٰهية للعقوبات والحدود ، لها مقدمات جليلة ، مهمتها العلاج والتربية ، قبل الوقوع في ضرورة وضع الحدود ، وبكلمة أخرى ، ان هذه المقدمات تركز تركيزاً أساسياً على الوقاية ، تحصناً بالإيمان ،

وتحصناً بدين الله ، وبذلك تكون الحيلولة دون الوقوع في المنزلقات والإنحرافات والآفات .

تلك هي التربية الصحيحة في أساسها الوقائي . فإذا حصل خلل ما ، فيتدبر بالعلاج ، بمحاولات جاهدة لتقويم المعوج وتسديد المنحرف بشتى الوسائل التي تجعل من ضميره محكمة فاضلة ، مع الإشعار بمعنى تقوى الله ، والشرف والمروءة ، إلى غير ذلك من آفاق التسامي فكراً وخلقاً وسلوكاً . فإذا لم ينفع ، لا الوقاية ولا العلاج ، فلا بد عندها ، وبالضرورة ، من البتر أو الكي ..

ثم إن التشريع الإلـٰهي للعقوبات ـ كما فسرته عملياً السنّة المطهرة ـ يعتمد غالباً التلويح بها أكثر من التنفيذ . حتى إذا وقعت الواقعة ، إما بالإقرار ـ دون إكراه حتى ولا إستدراج ـ غالباً ـ ، أو بالإثبات اليقيني .. وما أصعب الإثبات اليقيني الشرعي ، الذي هو دائماً إلى جانب المتهم ، الذي يبقى في نظر القضاء الإسلامي بريئاً حتى تثبت إدانته .

أما ما نجده من القمعية ، والإستبدادية ، في الملاحقة والتوقيف ، والمحاكمات وإصدار الأحكام ، من منطلقات غير دينية ، في بعض الحكومات التي هي مسلمة فقط في الدساتير، فتلك حكومات كذّابة ، ليست من الإسلام في شيء . بل عدوة الله وعدوة دينه الحنيف .

والحكومات الإسلامية حقاً ، هي التي تطبق شرائع الله عز وجل ، هي التي تحكم بما أنزل الله { .. وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَـٰفِرُونَ .. فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ .. فأولَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ . سورة المائدة الآيات 44 ، 45 ، 47 } .

ومن يحكم بما أنزل الله يعرف عبر حكومته ، أن التشريعات الإلـٰـهية ، إنما هي منهجية تربوية ، لن يستطيع الناس ولو عاشوا دهوراً فوق دهور ، وفوق ما تقدموا في شتى المجالات ، أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . لأنهم بشر مخلوقون . وهذه المنهجية وضعها لهم ربهم خالقهم ، رب العالمين .

لذلك كانت المجتمعات الإسلامية ، وما زالت ـ رغم فجور الإذاعات والتلفزة وجميع أجهزة الإعلام المتداولة ـ يحكمها الإيمان بالله ، والأخلاق الدينية ، أكثر مما يحكمها القهر الإعلامي ، والتوجيه الرسمي ، إلى التهتك والعلمنة والتفلت .. ثم إلى الهاوية .

المهم أن تبقى بعيدة عن النار .. بعيدة عن الهاوية .

تلك هـي الغاية التي أرادها الله سبحانـه للمجتمعات الموحِّدة ـ أي غير المشركة ـ المطيعة لله عز وجل ، العاملة بتعاليمه وشرائعه ، الحامدة لنعمه وتوفيقه ، وفضله وعطاياه ، وصدق الله الحبيب ، قوله عز شأنه :

{.. لَئِن شَكَـرْتُم لأزيدَنَّكُـمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إنَّ عَذَابى لَشَديدٌ . سورة إبراهيم الآية 7 } .

والشكر إنما يكون عملياً بالطاعة والجهادين ، الأكبر والأصغر، وحسن الظن بالله ، وحبه الحب الأعظم ، ثم حب ما يحب الله ، ومن يحبهم الله ، وبغض ما يبغضه الله ، ومن يبغضهم الله ، والحفاظ على الشرف والفضائل كلها ، إضافة إلى

الطهارتين : طهارة الباطن والظاهر . وتلك هي أجنحـة السعادة ، سعادة الدارين ، بقوادمها وخوافيها .

{ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أعْيُنٍ جَزَآءً بمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . سورة السجدة الآية 17 } .

وأما الكفر بالنعم ، إنما يكون بعدم الشكر لله ، ويكون عملياً بالمعاصي ، وبما حرّم من الشهوات ، وبالتفلت من شرف الإنسانية ، الذي شرعه الله ، فأبى أكثر الناس إلاّ كفورا ، وأبى أكثر الناس إلاّ فجورا ، وذلك هو الشقاء المتصل الأبدي ، شقاء الدارين :

وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين .

وأخيراً ينبغي أن نلفت ، إلى أن بعض التبريرات الوهمية للشذوذ بين المثلين ، أو الشذوذ عامة ، قد تكون صادرة فعلاً ، عن منظرين ذوي شخصيات سوية ، وحسن نية ، إلاّ أنّ مثل هؤلاء ، إنما ينظّرون تحت كابوس المدارس التقليدية للفكر التجريبي المنفلت ، المفتقر إلى الموازين الإلـٰـهية . وخاصة لوقوعهم تحت تأثير إيحاءات فكرية ، خططت لها ـ في معظمها ـ عصابات وبؤر الصهيونية العالمية ، بماسونيتها الشهيرة ، سابقاً ولاحقاً ، عبر جميع حقول المعرفة ، والمنابر والأجهزة التي تمكنت من السيطرة عليها أو الإسهام فيها .

ثم إن هذا الأمر لم يعد سراً ، بعدما كشفت منهجيتهم القائلة بوجوب إجتثاث جميع الشعوب غير الصهيونية ، وتدميرها بجميع الوسائل التي يتمكن منها خيال الجريمـة اليهودي ، وأبرزها إغراق المجتمعات في الفقر والخلل الإقتصادي ، والديون والأمراض والآفات ، وفي مقدمتها حمّيات الجنس والشذوذ

الجنسي ، وكل ذلك نفذوه ، وقد وصلوا فيه إلى الغاية القصوى ، في أوروبا وأميركا ، وأكثر المجتمعات المسيحية في العالم ، حيث أوقدوا فيها نيران الجنس النجسة .

وقد حاولوا ذلك جاهدين ، في البلاد الإسلامية ، إلاّ أنهم باؤوا بالفشل الذريع ، حيث صدّتهم البقية الباقية من دين الله ، في ضمائر الناس الطيبين ، وكانت لهم بالمرصاد .

صحيح أنه في الوقت الذي تحترق فيه المجتمعات الغربية في تلك النيران الشيطانية ، لم تسلم من الإكتواء بها أو على الأقل بوهجها مجتمعات هذا الشرق .

الا أن فضل الله العظيم ، بأن جعل توحيده واللجوء إليه أولاً ، وجعل الدين الإسلامي وقرآنه وتشريعاته حصناً حصيناً دون جميع المهلكات ثانياً ، وبلاد المشرق بلاداً مباركة ثالثاً ، وإلاّ لكان شرقنا منذ زمن قد تصهين وتعلمن ، وكفر بالشرائع الإلـٰهية ، كما تصهين الغرب وكفر وتعلمن .

إلاّ أنّ شيئاً واحداً سيقلب موازين الطغاة المفسدين في الأرض ، وسيجعلهم يتجرعون الحسرة والمرارة والندامة إلى أبد الآبدين ، هو حقيقة أن طابخ السم آكله ، هذه الحقيقة الماثلة في قول الله عز وجل ووعده ووعيده :

{ الَّذينَ طَغَواْ فِي الْبلَـٰدِ . فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصادِ . سورة الفجر الآيات 11 - 14 } .

بلى ، إنّ ربك لبالمرصاد .. للأفراد والجماعات ، ومجتمعات الحضارة البهيمية ، والأنظمة الجائرة . والمخيف

المفزع في الأمر، لمن يخشى ، أو لا يخشى .. هو في قوله تعالى : " سوط عذاب " ، أي عذاباً متصلاً لا ينقطع ، كما السوط ، ما يرفع إلاّ ليهوى به ، في تعذيب مستمر ، يصل

الدنيا بالآخرة .

إلاّ المُتّقِين فِي جَنَّاتٍ وَنعِيمٍ..
والآخرة ليس لها نهاية ..
و " قُلْ انْتَظِرُوا إنّا مُنْتَظِرُون .

الفصل الرابع

نحن وحضارة العام ألفين .. إلى أين

* إنطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب (30)
* لا ظليل ولا يغني من اللهب (31)
* إن المتقين في ظلال وعيون (41)
* وفواكه مما يشتهون (42)
* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون (43)

المرسلات

الإسلام أبقى على ما كان إيجابياً في الجاهلية الأولى وكذلك ينبغي أن يبقي على إيجابيات الجاهلية الثانية

الجاهلية الأولى :

معلوم أن الله عز وجل ، عندما بعث نبيه محمدا (ص) بالرسالة الإسلامية ، التي هي دين الله { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَـٰمُ . سورة آل عمران الآية 19 } كان أول ما أرسله إلى قومه ، ومن ثم إلى العالمين .

وقوم محمد (ص) آنذاك هم عرب الجزيرة المعروفة باسمهم ، كانوا ومن حولهم من الأمم والشعوب ، في جاهلية جهلاء ، كان طابعها العميق ، الوثنية والشرك بالله .

كذلك كان الحال في أبرز حضارتين لأكبر أمبراطوريتين، زامنتا الرسالة الميمونة ، هما الفرس والروم . وهاتان الدولتان (العظميان) كانتا ـ كذلك ـ تتقاسمان حكم العالم آنذاك .

هذه الجاهليـة ، حسب القرآن الكريم ، هي الجاهلية الأولى ، المنوّه عنها في قوله تعالى :

{ .. وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَـٰهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ... . سورة الأحزاب الآية 33 } .

أما الجاهلية الثانية ، فهي مستقرأة مترتبة على تلك الأولى . فحقيق أن تكون هي المستشرية على مستوى العالم ، منذ بدء خبوّ الإسلام في نفوس المسلمين ، وتراجعهم عن التمسك بحبل الله وشرائعه المنـزلة ، إلى أيام إنبعاثهم من جديد ، ورجوعهم إلى الله وإلى دينه الحنيف .

الجاهلية الثانية والديمقراطية :

فكان بديهياً أن يقابـل تراجع أهل الحق ، تقدم أهل الباطل ، مما جعل الجاهلية قاسماً مشتركاً بين الطرفين . فأخذت تنمو وتتكاثر بكثافة ، طفيليات الحضارة الراهنة ، التي طبعتها كذلك وعميقاً ، جاهلية جهلاء ، بالشرك والوثنية ، بين إفساد بني إسرائيل الموعود في كتاب الله ، وبين غدر المسيحين بدينهم ، وذلك بأن أسسوا على الإلحاد ، إحدى أعظم دولتين في الأرض (الإتحاد السوفياتي قبل إنهياره) ، وعلى الشرك والظلم ومعاداة الإسلام والولاء المذل لليهود أعداء المسيح والمسيحية ، الدولة العظمى الثانية ، المتمثلة بأميركا والغرب المسيحي كله . وكل ذلك ضمن تخليهم عملياً عن المسيح وعن شرائع المسيح وعن دين المسيح الذي هو إسلام من الإسلام لله رب العالمين .

هذا الواقع ، أدى إلى حالة من التناقض الشديد في المفاهيم السياسية ، وجعل الديمقراطية التي يتبجحون بها سلاحاً وحشياً ، يكيّفه التوجه الإمبريالي مزاجياً حسب مصالحه ، ضارباً بالشرائع الإلـٰهية والأخلاق والأعراف والمنطق عرض الحائط بما فيه حائط الأمم .. المتحدة . تلك هي إذن الجاهلية الثانية .

{ أَفَحُكْمَ الْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . سورة المائدة الآية 50 } .

الحضارات بين الجاهلية والإسلام :

وإذ كنَّا قد ألمحنا إلى حضارتي الروم وفارس قبل الإسلام ، وذكرنا أنهما كانتا في جاهلية ، وكذلك جاهلية حضارة القرن الخامس عشر الهجري ، العشرين الميلادي ، فقد يخيل أن فيما قلناه تناقضاً ، لا سيما للذين يعتبرون الحضارة بمعناها الدنيوي ، غاية وهدفاً ، حتى ولو كانت مفرغة من المفاهيم الدينية المنزلة . والحقيقة ليست كذلك . قال تعالى :

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بهم مَّا كَانُواْ بهِ يَسْتَهْزِءُونَ. فَلَمَّا رَأَواْ بَأسَنَا قَالُواْ ءَأمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بمَا كُنَّا بهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَواْ بَأسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَـٰفِرُونَ . سورة غافر الآيات 82 - 85 } .

فدليلنا هنا ، قوله تعالى : { كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَآثاراً فِي الأَرْضِ } ثم قوله تعالى : { فَرِحُوا بمَا عِندَهُم مِّنَ العِلمِ } وهذا كناية عما نسميه (الحضارة) ، أما قوله سبحانه { وَحَاقَ بهم مَّا كَانُواْ بهِ يَسْتَهْزِءُونَ } فهو استهزاؤهم بالدين الإلـٰهي وأتباعه ، وواضح أن علاجه عز شأنه ، كان لأولئك وسيكون لهؤلاء ، بالبأس والشدة ، إما إستئصالاً ، وإما إسقاطاً لدولهم وهدماً لأمجادهم ، وخزياً لهم

في الحياة الدنيا وفي الآخرة عظيم العذاب .

فالحضارة إذن ، بالنظر الإلـٰهي ، مهما تقدمت في مجالات الحياة ، عمرانا وسياسة وإدارة وإقتصاداً وفتوحات علمية ، إذا لم تكن مرتكزة على الإيمان بالله واحداً لا شريك له وعلى دينه وشرائعه ، فهي في جاهلية جهلاء ، وبالتالي رهن بإنزال غضب الله وعقوبته عليها مهما طال بها الأمد .

وبكلمة أخرى ، ان الحضارة الجاهلية ، التي هي عيناً الحضارة العلمانية ، يستحيل أن تستمر ثابتة على أسس الخير والحق والجمال ، لأن منهجيتها ستبقى ناقصة بنقص الإنسان الذي يرعاها ويوجهها وينظّر لها . فهي لا يمكن أن تكمل كمالاً إنسانياً إلاّ إذا أخذت بتعاليم خالق الإنسان ومكمل الإنسان ، الله الذي لا إلـٰه إلاّ هو الحي القيوم وهو أحكم الحاكمين .

{ .. وَوَيْلٌ لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أولَـٰئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ . سورة إبراهيم الآيات 2 - 3 } .

ومن أظهر الأدلة القاطعة في هذه المرحلة المعاصرة ، هو الهدم السريع ، والإنهيارالمدوّي ، لتلك الدولة الحضارية العظمى ، الإتحاد السوفياتي (إحدى الدولتين الأعظم) مع ما كانت تملكه من جميع المقومات العملاقة المادية ، إضافة إلى سيطرتها على حوالي نصف العالم ، والتي لم يكن يخطر ببال ملحد أو علماني أو مشرك ، أنها ستسقط كما سقطت بكلمة كن فيكون .

مؤشرات لنهاية الحضارة الراهنة أو الجاهلية الثانية :

والمطلع على المعادلات الإلـٰهية في القرآن المجيد ، رابطاً ذلك بما يجري وبشكل متسارع على الأرض وما حولها ، من تغيرات في السماء وفي الأجواء ، متزامنة مع تفكك وخراب ونهاية إحدى الدولتين الأعظم ، ثم غزو العراق للكويت ، ثم إجماع الأمم على تدمير العراق ، مع حصانة وحضانة لدولة إسرائيل ، إلى جمعها مع ألد أعدائها العرب في مدريد ثم في بقية العواصم ، للتفاوض حول سلام عجيب بين ظالم باغ ومظلوم مبغي عليه ، بين معتد آثم ومعتدى عليه ، إلى التلويح بشن حروب على دول مستضعفة ، بتهمة أنها تستطيع أن تكون نووية . في وقت اتخمت فيه أجهزة الإعلام العالمي ، بما لدى إسرائيل من قوى نووية فضلاً عما تملكه الدول الكبرى . هذا إلى آخر ما في العالم من منكرات وتناقضات ، وما لدى حكام العالم من وقاحة ولؤم وغطرسة ، وظلم وتعسف ، بحق الضعفاء والشرفاء والأخلاقيين ، الذين تجنبوا ، جهدهم ، الظلم والإفساد في الأرض ، وكأن لسان حالهم يقول : ربنا أحب إلينا أن نلقاك مظلومين على أن نلقاك ظالمين . قلنا أن المطلع على هذه القوانين الإلـٰهية والمتتبع لما يجري في الأرض ، يوقن أن هذه الحضارة ، إلى سقوط مريع ، تحت سياط غضب الله وسخطه .

{ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ . سورة الفجر الآيات 13 - 14 } .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فإنه سبحانه ، وعد المؤمنين باستخلافهم في الأرض ، وفي جملة وعوده ، قوله تعالى :

{ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًاً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِك فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ . سورة النور الآية 55 } .

ثم ان ما نعيشه ونشهده بالمقابل ، من رجوع المسلمين إلى الله ، وإلى تمسكهم بحبله المتين ، ودينه الحنيف ، دليل قوي على بدء تحقق وعد الله باستخلاف عباده الصالحين . وهذا ما بدت ارهاصاته تبرق وترعد هنا وهناك ، منذ سبعينات هذا القرن العشرين . منفجرة في ثورة عارمة مباركة في إيران ، ناهضة خلال تحولات وتطورات متسارعة ، وتفجرات خضراء حمراء ، وشيكة كامنة ، في كل بقعة من البقاع الإسلامية المباركة . ذلك كله رغم الحرب المسعورة ، التي يشنها على الإسلام وأهله طواغيت الغرب وعرب أبي سفيان وأبي جهل وأبي لهب .

فالإسلام بإذن الله آت لا محالة ، آت بصفائه وجماله ، فتياً قوياً ، وآتية معه العدالة والحرية ورحمة رب العالمين .

لذلك وفي جملة الإستعداد لإستقبال الدولة العتيدة على مستوى العالم ، وفي جملة المواضيع والمفاهيم ، التي معظمها والحمد لله ، يمارس عملياً في الجمهورية الإسلامية ، إضافة إلى التشريع الإلـٰهي بأصوله وفروعه ، تبقى موضوعات ذات صلة بالشكل والجوهر ، يقيض الله لها هنا وهناك من يقرأ :

{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . سورة القلم الآية 1 } .

ثم يكتب مستنيراً بربه الحبيب ، متوكلاً عليه ، وما التوفيق إلاّ بالله الحليم الكريم .

من هنا كان لزاماً علينا أن نمهد بما قدمنا للموضوع الذي نحن بصدده ، وهو أن الإسلام أبقى على ما كان إيجابياً في

الجاهلية الأولى ، وكذلك ينبغي أن يبقى على ما هو إيجابي في الجاهلية الثانية ، لأننا وجملة من العلماء والعقلاء ، نرى أن كثرة من المتحمسين للإسلام ، يضيقون على أنفسهم وعلى المسلمين الآخرين وعلى الناس عامة ، في أمور لا هي من الشريعة الإلـٰهية ، ولا من السنّة المباركة ، وهم ، أي الأتباع المتحمسون البسطاء ، يحسبونها من صلب الدين وجوهره .

وبشكل عام هم يهتمون بالشكل والعرض ، أكثر من الإهتمام بالجوهر ، وحتى غالباً ما يكون إهتمام أكثر الطارئين الجدد والطارئات ، بالشكل دون الجوهر . ومثال على ذلك شدة الحرص على شكل الثياب عند الجنسين ، من حيث توحيد الزي واللون ، ثم الإنشغال بذلك نفسياً وذهنياً ، وغالباً ما يكون ذلك على حساب التوحيد وفهم القرآن وإنفتاح الإسلام ومرونته ، فيما يرضي الله الرحمـٰن الرحيم ، والواسع الكريم . فبينما يكون القصد التشريعي ـ بخصوص اللباس ـ هو في العمق حالة من الحصانة ، فيها التقوى والحشمة والعفة والطهارة ، يصبح الأمر شكلياً تعصبياً ، على مستوى مقيت من الفراغ والسطحية وأخطارهما . في وقت يطلب فيه إظهار جوهر الإسلام وحقيقته الناصعة المشرقة ، التي هي قمة الحق وقمة الخير وقمة الجمال في المجالات الإنسانية .

هذا من بعض الوجوه المنفرة ، ومن وجه آخر ، فإن أمثال هؤلاء المسلمين المحدودين والمتحمسين في آن واحد ، ينظرون بعدوانية ، أو أقله بعين ضيقة ، إلى جميع ما توصلت إليه الحضارة في مجالات التقدم العلمي .

والعجيب الذي لا يكاد يصدّق ، أن بعض الطلبة الدينيين ، فاجأنا يوماً ـ حيث كان يصحبنا في سيارة مع صديقين آخرين ـ

أنه لا يصدق حكاية صعود بشر إلى القمر ، وأكثر من ذلك فهو لا يصدق حتى أن الأرض كروية .

لذلك نرى إضافة مواد تعليمية جديدة إلى مناهج الحوزات العلمية ، مثل مبادىء التكنولوجيا الحديثة والرياضيـات ، والفلك ، والفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء وغير ذلك من العلـوم ، التي أصبحت ضرورية حتى للإنسان العادي في عصرنا هذا ، وفيما نحن قادمون عليه من تحقيق وعد الله بإذنه وبتوفيق منه تبارك وتعالى . وأن يكون هذا التعليم إلزامياً ، وإلاّ تفاقمت الأمّية فيما بين الدعاة والمدعوين والوعاظ والمتعظين ، وبقي شعار التعصب والتخشب هو الطابع الغالب ، وإلى مثل ذلك يشير سبحانه وتعالى بقوله :

{ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَناً .. سورة فاطر الآية 8 } .

فبهذا التعليم والتعلم الخاص لرجال الدين ، والعام لبقية الناس نستطيع أن نرث أو أن نستفيد إيجابيات هذه الحضارة ، وكذلك نتجنب سلبياتها . كذلك كما استطعنا سابقاً فيما فتح الله علينا من ممالك وأورثنا حضاراتها ، أيام كنا أميين حفاة نتعثر أيام الفتوحات بأواني الذهب والفضة ، فلا نعبأ بها ولا نبالي ، لا نريد إلاّ وجه الله الحبيب ، ونصرة دينه الحنيف ، وأن تكون كلمته في الأرض هي العليا . ذلك لأن رصيدنا كان وسيبقى إنشاء الله إلى قيام الساعة وإلى أبد الآبدين ، وهو أعظم رصيد على الإطلاق ، في تاريخ الخليقة كلها ، ألا وهو كلمة **لا إلـه إلاّ الله والله أكبر** ، مع ما يستتبعها من تعليم الله لنا ، ونصره وكرمه ، وغفرانه ورضوانه ، له الحمد في الأولى وله الحمد في الآخرة ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وجهان للحضارة : جميل وقبيح

مما لا شك فيه أن الحضارة ، بما تعنيه من تقدم وتطور مذهل في شتى مجالات العقل والكون ، قد جعلت الإنسان أغنى بالمعاني ، وأقدر على التحكم بمعطيات الوجود ، وبالتالي أرفع مستوى ثقافياً مما كان عليه الأسلاف من عوام البشر .

نستثني من ذلك الملهمين ، كما نستثني إحتمال حضارة أو أكثر ، يقال أنها فاقت حضارتنا هذه . ولعلها هي التي أشار إليها الله عز وجل بقوله :

{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيْعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ . وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . سورة الشعراء الآيات 128 - 129 } .

ودمرها لما أن انحرفت عن طاعته وتعاليمه .

أما من الوجهة الإيجابية للحضارة ، فجميل جداً أن تضغط زراً لتضيء المنزل ، أو الشارع أو المدينة بنور مريح ، بدلاً من الشمعة أو قنديل الزيت ، مع الفارق الكبير ، العملي والنوعي والإقتصادي .

والأجمل منه ، أن تطير إلى مكة ، أو تكرج على الدولاب ، حاجاً ، فتصل إليها في بضع ساعات أو بضعة أيام . وكذلك إلى أي مكان على هذا الكوكب . وأن تسعد بصحبة عيالك أو إخوانك إن صحبتهم . أو تعود إليهم على جناح الشوق ، دون طول غربة وطول فراق .

ويتكامل الجمال في عينيك ، ويصبح رافداً للسعادة في قلبك ، عندما تشكر الله .. وتقول عندما تقلع بك الطائرة ، أو تندفع بك السيارة :

{.. سُبْحَـٰنَ الَّذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنّا لَه مُقْرنينَ . وإنَّا إلَىٰ رَبّنَا لَمُنْقَلِبُونَ . سورة الزخرف الآيات 13 - 14} .

صدق الله العظيم . كل ذلك بدلا من الوسائل البدائية ، وما كان فيها من كلفة البدن وكلفة الزمن ، وهدر ما بينهما من الطاقات .

وجميل أن يكون لبيتك سقف ، تنزلق عليه مياه المطر ، بدلاً من أن تتسرب عبر السقف الترابي إلى الداخل ، فتختلط بدخان الموقد العتيق ، وتمتزج بالدموع .. التي توشك أن تكون بكاءً ، فتنغص بركة الشتاء وبركة الحياة . ولو كان لا يجرح في ذلك قول ميسون الكلبية زوجة معاوية :

لَبَيْتٌ تَعْصِفُ الأرياح فيه أحبُّ إليَّ من قصرٍ مُنيفِ
ولبسُ عباءةٍ وتَقَرُّ عَيْني أحبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفُوفِ
وشهمٍ من بَني عَمّي نحيفٍ أحبُّ إليَّ من عِلْجٍ مُخيفِ

إذ أنها لا تلام في ذلك ، وهذا الموقف شبيه ، ولو من طرف الزوج ، بموقف زوجة فرعون التي أخبر الله سبحانه أنها قالت ـ وقد شاهدت فساد القصر وكفر من في القصر :

{ .. رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ .. سورة التحريم الآية 11} .

وجميل في الحضارة أن تدير مفتاح الكهرباء أو الغاز ، لتطبخ أو تهيء بالسرعة ، ما تشاء من طعام وشراب ، بدلاً من النفخ على الحطب ، الذي يذكرنا بإزعاجه ، جانباً من معنى قول حاتم الطائي لعبده :

أوْقِدْ فَإنَّ الليْلَ لَيْلٌ قَرُّ والريحُ يا واقِدُ ريحٌ صَرُّ
إنْ جَلَبَتْ ضَيْفاً فأنتَ حُرُّ

وجميل في الحضارة أن تنقل أصابعك على لوحة صغيرة لتحسب في عمليات رقمية معقدة ، فتحصل على نتائج ، نادراً ما تحتاج إلى مراجعة ، وذلك في ثوان كان يقتضي الحصول عليها في الماضي ساعات طوالاً ، مع إعنات للدماغ ، وإرهاق للجهاز العصبي ، وهدر لوقت يمكن أن تقدّم فيه للعقل وتوابعه ، وجبات علم ودراية ، ومنقول ومعقول ، وما بينهما من فتح لمغاليق الأسرار .

وكم تشعر بالحيوية والنشاط والسعادة وأنت تشكر الله .. متمتما أمام كل جهاز ، أو نتيجة كل عملية يسّرها سبحانه :

{ عَلَّمَ الإنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . سورة العلق الآيـة 5 . صدق الله العظيم } .

او : { .. الْحَمْدُ للهِ الّذي هَدَانَاَ لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أنْ هَدَانَاَ اللهُ ... . سورة الأعراف الآية 43 . صدق الله العظيم } .

وعندما تشعر بالفرحة بنعمة الله ، تتلو قوله تعالى :

{ قُلْ بفَضْلِ اللهِ وَبرَحْمَتِهِ فَبذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . سورة يونس الآية 58 } .

ثم تبتسم إبتسامة المشفق الحزين ، على الذين حرموا أنفسهم نعمة الإيمان .

{ .. الّذينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً .. سورة إبراهيم الآية 28 } .

فحرموا السعادة الحقيقية ، ولذلك ادّعوا أنها من المستحيلات .

وجميلة في الحضارة ، الثلاجة والغسالة الأوتوماتيكية ، وأنواع المنظفات .. والحمامات وتسريب الأوساخ في باطن الأرض ، ولا عين رأت ولا أنف شم .. من الفلوات والغيطان والحواكير . جميلة النظافة الأكثر والأروع ، في البيت والشارع ، والمدن والأرياف ، نحصل عليها بدون كبير عناء .

جميلة الحضارة ، وجميلة معها الإدارة المتقدمة بتقنيتها ، والقوانين الإيجابية ، وأنظمة السير ، وما أكثر وجوه الجمال في الحضارة ، ولو شئنا أن نعدّد لاقتضى الأمر منا مجلدات : في مجال ذات الإنسان ، وفي كوكبه السوّاح حول الشمس ، وفي الفضاء وفي الفلك .

والأجمل من ذلك كله إرتقاء القمر ، والتنقل عليه بخفة توازي ثمن (1/8) وزن الإنسان على الأرض ، بما يشبه الطيران فوق تلاله وآكامه ، ثم التطلع منه ـ عبر العلم الذي أوصل إليه ـ نحو جيران أرضنا : المريخ الأحمر بأقماره ، وزحل بهالاته الشاعرية ، والمشتري عملاق الكواكب . هذه وبقية مجموعتنا

التي تقودها شمسنا كراع يقود قطيعه ، ولا أحد غير الله يعرف إلى أين ، والراسخون في العلم . والأجمل أيضاً ، الحلم بإرتقائها ، بعضاً أو جميعاً . وأخذ فكرة عن من حولها ، أو منها ، أو عبرها ، عن الجنة والنار .. أفي مجموعتنا الكوكبية هما ، أم في مجرتنا درب التبانة . أم في مجرة أخرى معروفة ، أم في مجرة من اللواتي تراهُنَّ المراصد مرة واحدة ، ثم لا تعود تراهنّ أبدا ؟! النعيم والجحيم ، هل هما في كوننا المرئي ، أم في كوننا غير المرئي من دنيانا هذه ؟! .

جميلة التلسكوبات ، وأجهزة الرادار ، والمراصد ، والجالسون أمام عدساتها ولوحاتها الألكترونية : يراقبون .. يدرسون .. يسجلون .. ينبهرون وينبهر معهم العالم بما في هذا الكون من أسرار وجمال ، وحسن وروعة ، ومفتحات ومغلقات .. تارة تشعرنا بالسعادة والشوق إلى ما وعد الله به الأبرار ، وتارة تشعرنا بالرهبة والفزع ، وتغرقنا في التأمل عن النفخ بالصور ، والقيامة وأهوال القيامة والإنبعاث . من ذلك الذي هو في مفكرة العلماء اليوم : طواحين الشموس والكواكب ، وهي ما أسماه العلم بالثقوب السوداء ، ووصفها بأن بعضها تهوي فيه مجموعات كوكبية بشموسها ، فتطحنها طحناً ، وهو أمر إستنتاجي عندهم ، ولنا نحن أن نستنتج معهم ، أنها أمثلة يضربها الله لنا عن القيامة الكبيرة الكلية الشاملة ، التي عناها بقوله عز وجل :

{ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّور فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَـٰوٰتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَـآءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دٰخرينَ . سورة النمل الآية 87 } .

والعلماء يصورون هذه الثقوب على شكل أبواق ، الواحد منها يجذب المجموعة الكوكبية جذباً عنيفاً ، يبتلعها إبتلاعاً ،

يسحقها سحقاً ، ثم تنبعث من جديد ، من طرفه الآخر ، من الثقب الأبيض ، تنبعث وقد أعاد خلقها الذي يميت كل شيء ، ليبعثه حياً كما خلقه أول مرة ، قوله عز وجل :

{ إِلَيْهِ مَرْجعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الّذينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذينَ كَفَرُواْ لَهُم شَرَابٌ مِّنْ حَميمٍ وَعَذَابٌ أَليمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ . سورة يونس الآية 4 } .

وإذا لم نفهم الثقوب السود فهماً قرآنياً ، كان في خروجنا من الثقوب البيض إستحالات وإشكالات . ومن الإنذارات قوله عز شأنه :

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا . إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَـٰرِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُم . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعَكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ .. سورة محمّد (ص) الآيات 24 - 26 } .

جميلة الحضارة ومخيفة ، وجميل العلم ومخيف . يبقى أن الأجمل من هذا كله ، كما السعادة في كمالها واستمراريتها ، أو الأشد قبحاً وأشد إرهاباً ، هو عقل الإنسان ، فمن أين هذا العقل وبالتالي هذا الإنسان ، وإلى أين ؟! .

بليغ هذا السؤال ، والأبلغ منه الإجابة عليه . الإجابة التي تقول : **{ لا إلـه إلاّ الله }** . الإجابة التي تضع على الحقيقة ، العين والقلب وكل ذرة في الكيان . وقد وضعها ناس فسعدوا سعادة الأبد . وما زال ناس آخرون ، يمدون إصبعهم تارة في عتمة ، وتارة بين النور والعتمة ، وتارة في سراب ، وتارة

تحت قنديل ديوجين ، الذي كان يسير به في ضـوء النهار ، باحثاً عن الحقيقة . والحقيقة ما هي في عتمة ، ولا هي في الشك ، ولا هي في سراب ، ولا هي من ديوجين في مزحة أو خبال .

هذه الحضارة الجميلة ، أرادها لنا الله تبارك وتعالى سعيدة مسعدة ، ولكن اشترط على الإنسان أن يعرف خالقه من آثار صنعه وكرمه وعظمته ، وأن يحترم النعمة العظمى التي هي عقله ، فيغذيه بعلم وهداية وكتاب منير . اسمع قوله عز وجل :

{ أَلَمْ تَرَواْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَـٰوٰتِ وَمَا فِي الأَرْض وَاسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً .. سورة لقمان الآية 20 } .

وقوله تبارك وتعالى :

{ طه . مَآ أنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ . سورة طه الآيات 1 - 2 } .

وقوله جل وعلا :

{ اقْرَأ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ . الّذي عَلَّمَ بالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . سورة العلق الآيات 3 - 5 } .

وقوله عزّ شأنه :

{ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَـٰوٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إنَّ فِي ذَٰلِك لأَيَـٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الجاثية الآية 13 } .

وقوله وما أكرمه :

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَةَ اللهِ الَّتِى~ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطّيِّبَـٰتِ مِنَ الرِّزْقِ .. سورة الأعراف الآية 32 } .

ثم تنهال التحذيرات من تشويه وجه الحضارة :

{ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلاَ تَطْغَواْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبي فَقَدْ هَوَى . سورة طـه الآيـة 81 } .

ثم :

{ وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيـزَانَ . ألاَّ تَطْغَواْ فِي الْمِيزَانِ . سورة الرحمن الآيات 7 - 8 } .

ثم :

{ كَلاَّ إنَّ الإنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰ . سورة العلق الآية 6}.

ثم قوله جلت عظمته :

{ قَدْ مَكَرَ الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىَ اللهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدَ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَـٰهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ. سورة النحل الآية 26 } .

الفصل الخامس

الحب الإباحـــي

{ كَلاَّ .. إِنَّ كِتَـٰبَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ }

المطففين / 7

الحب الإباحـي

أحسُّ بقلمي يأنف من الكتابة في موضوع الإباحة والإباحيين ، ويشد مترفعاً وأنا أغالبه ، حتى أدبت نفسي وأدبته بتأديب الله تبارك وتعالى ، فقلت له : أكتب قول الله عز وجل :

{ كَلاَّ إِنَّ كِتَـٰبَ الْفُجَّار لَفِي سِجِّينٍ. سورة المطففين الآية 7 } .

فسجد لله جلت عظمته وكتب ...

فما هي الإباحة أو الإباحية ؟

الإباحية هي التحلل من الضوابط الدينية والمعايير الأخلاقية بشكل عام . وإذا كانت بعض المفاهيم المنحرفة عن

صراط الله عز وجل ، قد اعتبرت أن الأخلاق جدلية ونسبية متغيرة . فلأن أصحاب هذه المفاهيم يعملون بنفوس شوهتها رعونة الحضارة ، وخبلتها البدع والأباطيل ، فجعل الله من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً .. فهم لا يبصرون . أما واقع الحال فقد ثبت بالتحليل العقلي ، أنَّ أصول الأخلاق ثابتة وفطرية .

فإذا لم تنفع نُذُرُ الله تبارك وتعالى مع التحليل العقلي المعافى ، في الكشف عن كوامن الخطر المستفحل ، ورصد النتائج قبل وبعد حلولها ، والتي من مظاهرها القلق النفسي ، الذي هو سمة عالمية في المجتمعات غير المتدينة . وكذلك إختناق المنحرفين ، بإبتلاءات ظاهرها الصدفة ، وقلة الحظ ، وباطنها لكل دفتر علاماته ، هذا بلغة اليوم ، أما بلغة الحق فقوله عز وجل :

{ مَآ أصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأرْضِ وَلاَ فِي أنفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَـٰبٍ مِن قَبْلِ أن نَّبْرَأهَا إنّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . سورة الحديد الآية 22 } .

ومن هنا إنفجارات العنف في كل أنحاء الأرض ، وطبعاً ليس سواء منها الإنفجارات المؤمنة العادلة ، وتلك المجنونة الظالمة ، على أن المؤسف كون أغلبيتها من النوع الأخير .

قلت إذا لم تنفع النذر الإلـٰهية ، وصيحات العقول الربانية أو التي تابت واغتسلت فطهرها نور الله سبحانه ، إذا لم يجد نفعاً كل ذلك في ردّ الهجمة الإباحية ، فليرتقب العالم كله الكارثة العظمى على علم منه وبصيرة ، والتي لن ينجو منها إلاّ من رحم ربك . أما الكوارث التي نرى ونسمع ، رغم كثرتها ما هي إلاّ إنذارات ومقدمات ، وما أكثر العبر وأقل المعتبرين .

{ .. فَاعْتَبِرُواْ يَـٰأوْلِي الأبْصَـٰر. سورة الحشر الآية 2 } .

ذلك لأن كتّاب الإباحة ومتعاطوها يقذِرون وجه العالم وهو في أصل الخلقة نظيف ، لأنهم يعصون الله سبحانه ، فيمزقون الياسمين ويحرقون الزنبق . لأنك تقف في قلب أي مجتمع مزعوم الحضارة اليوم ، وتصرخ بأعلى صوتك : العفَّة يا بني الإنسان ، الطهارة يا بشر ، نظافة الروح يا قوم ، نفوس بلا أمراض يا عالم !

فسيقولون : هذا إما مدّعي نبوّة .. وإما .. مسلم .

فالحمد لله على نعمة الإسلام .

إذا لم تَسْتَحِ ...

كُتّابُ الإباحة ومتعاطوها بين الورق .. والمخدع .. والشاشة ، هم أعداء الله عز شأنه وأعداء الإنسان .

اسمع قوله عز وجل فيهم على لسان نوح عليه السلام :

{ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً . سورة نوح الآية 27 } .

هم الإباحيون فجرة كفرة .

فمعارض الأجساد العارية ، وحكايا الفحشاء ، في دواوين نزار قباني مثلاً ، أفهم أن تدخل بيوتاً تشكو من قلة الوهج الإيماني وما يستتبعه من فضيلة وغيرة وعفة ، أما أن تدخل إلى بيوت (المجاهدين) ويتغنون بها ، فهذا ما لا يستطيع إبتلاعه فرس النهر رغم شهرته باتساع شدقيه .

وبيت شعر واحد لنزار قد يوجز كل غزله ومفهومه عن الحب عامة وهو :

فَصَّلْتُ مِنْ جَسَدِ النِّسَاءِ عَبَاءَةً وَبَنَيْتُ أهْرَاماً مِنَ الْحَلَمَاتِ

وهذا البيت من قصيدة ألقاها في العراق على الملأ ، وفي مؤتمر رسمي هو مؤتمر المربد ، وطبعاً صفق له طويلاً الجمهور المشوَّه الشخصية ، وأكثر من الجمهور صفق له الشعراء والمؤتمرون .

وما يقال عن نزار يقال عن عشرات أشباهه أو مقلدّيه ، علما أنه هو مقلد لشاعر العري الفرنسي (بودلير) خاصة في ديوان هذا الأخير (زهور الشر) الذي أخجل عند صدوره أوروبا كلها ، وهي التي في هذا المجال قليلاً ما تخجل .

كما أنه يلفتني أمر في منتهى الغرابة ، هو تقويم كثير من رجال الدين للأدب تقويماً يبدو وكأنه شاع بينهم بسبب فهم متراخٍ للنصوص الدينية ولموقف النبي صلى الله عليه وآله من الشعر الماجن الذي تساهل معه في البداية لأنه كان خمرة القوم ، حتى إذا تمكن الإيمان من الأنفس أمر أن يفصل من الشعر ما كان لغير الله سبحانه ولغير دينه .

أما الموقف المتراخي لبعض رجال الدين حفظهم الله تعالى ، فقد نتج عنه في الشعر خاصة ، تساهلهم حفظاً ونظماً لنصوص شعرية تبدأ بالغزل أو بالخمريات لتحلّ البركة في مجالس القوم . وقد يؤولون الغزل أحياناً ، تأويلاً صوفياً على طريقة ابن الفارض عند العرب في التائية الكبرى وفي بقية قصائده التي يرمز فيها ، إلى الله سبحانه وتعالى عما يصفون ، تارة بليلى وتارة بسعاد . أو جلال الدين الرومي عند الفرس الذي

أنشأ الطريقة المولوية التي كان (دراويشها) يهدفون إلى حالة الوجد الصوفية على أنغام الناي .

وكذلك يؤولون الخمريات ، آنا بأن الخمرة في هذا الشعر أو ذاك هي الخمر الإلـٰهية . وحيناً أن وصف الخمر ومجالسها شيء ، وتعاطيها شيء آخر ، باعتبار حليّة الأول وحرمة الثاني ، لدرجة أن بعضهم يبرئ الحسن بن هانيء ـ أبا نؤاس ـ من معاقرتها ، وهو المعروف عند الخاص والعام بمجونه قبل توبته ، حتى صار رمزاً للبوهيمية عند المتفلتين ، وحتى إن شعره أصبح يشكل فتحاً خمرياً في أذهان المراهقين على مقاعد الدراسة ، ومن ثم على مقاعد الموائد العامرة .. بالقيء .

هذا كله بسبب هجمة لا أخلاقية ، يشنها المشرفون على الثقافة في البلاد الإسلامية عامة ، والعربية منها بوجه خاص ـ طبعاً باستثناء الجمهورية الإسلامية ـ وهؤلاء المشرفون ، غالباً غير مسلمين إما أصلاً وإما مضموناً . مما يجعلهم يكنّون للإسلام عداءً حاقداً ، تارة عن تصور وتصميم ، وتارة عن غباء وبلاهة .

أما أهم المصاديق التي يحتج بها بعض الإخوان من رجال الدين من المتساهلين مع هذه الألوان الأدبية . هي نماذج من شعر المقدس السيد محمد سعيد الحبوبي وهو أحد كبار المراجع الدينية في القرن العشرين . إذ ان له ديواناً مطبوعاً من الحجم الكبير ، تكاد لا تخلو منه مكتبة عالم أو أديب أو شاعر ، وفعلاً فيه نماذج كثيرة من الغزل والخمريات ، عندما اطلعت عليها أخذتني الدهشة ، خصوصاً قصيدته التي مطلعها هذا البيت الذي يجري مجرى الأمثال :

صُبَّ لِي كَأساً وَخُذْ كَأْساً إلَيْكَ فَلَذِيذُ العَيْش أنْ نَشْتَرِكَا

وإنما زال عجبي عندما عرضت هذا الموضوع على العلامة المجتهد السيد رضا الصدر حفظه الله علماً من أعلام المسلمين ، فأفادني وعلى مسمع من بعض الإخوة الذين كان يهمهم حسم هذا الموضوع ، بأن صاحب الديوان المشار إليه ، إنما نظم ما فيه ، في مرحلة الصبا والشباب ، وكان ذا طاقات كبيرة ، وعبقرية فذة ، سريعاً ما حولها بفضل من الله تعالى ، إلى تحصيل العلوم الدينية ، غوصاً وبحثاً واستنباطاً . مما جعله يتألق كمجتهد أولاً ، إلى أن قيض له الله سبحانه أن رفعه أساتذة الحوزة وطلبتها مكرّماً إلى سدّة المرجعية ، التي هي أعلى مقام إسلامي في زماننا ، فطارت شهرته في الآفاق ، بسبب من شدة إخلاصه لله سبحانه ولدينه الحنيف .

وتابع السيد رضا الصدر حفظه الله يقول : أن المقدس الحبوبي سئل مرة عن رأيه في ديوانه وكان قد طبع بدون معرفته ، فبدا عليه الأذى وأشاح بوجهه . ثم سئل ، فقال : أستغفر ربي كثيراً على ما قدّمت يداي ، ولو كنت أعلم لأحرقت المخطوطة قبل أن يطبعوها .

الله قال في الشعراء :

بقلب أسرعت نبضاته ، وبعقل حائر ، لجأت إلى الملجأ ، إلى الله تبارك وتعالى استنير بنوره في ظلامي وظلام ما حولي ، وتشرفت بكتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أقرأ القاعدة التي يقوّم بها الله عز وجل الشعر والشعراء وأهل الفنون عامة ، منذ الإسلام وحتى قيام الساعة ، معلناً مقته وبغضه سبحانه للشعراء والفنانين الضالين المضلين :

{ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبعُهُمُ الْغَاوُونَ . سورة الشعراء الآيـة 224 } .

وقبلها قوله تعالى :

{ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَـٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أثيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ . سورة الشعراء الآيات 221 - 222 - 223 } .

فنفهم من ذلك ، أنه كما يلقي هؤلاء سمعهم وأكثرهم كاذبون ، لمن يتنزّل عليهم من الشياطين ، كذلك الغاوون الذين يتبعون الشعراء هم يلقون إليهم سمعهم ، فالغاوون الذين يتبعون الشعراء هم بمنزلة كل أفاك أثيم وأكثرهم كاذبون . وشعراؤهم بمنزلة الشياطين .

باستشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، انفجر ثانية سد مأرب وإنما هذه المرة ، بتراكم الأحقاد الأموية وأحقاد الشرك عامة على الدين الحنيف ، وعلى من رفعوا ألوية الإسلام الحقيقي العظيم . إنفجر السد شعراً سياسياً أرعن ، سرعان ما طغت عليه مفاهيم جاهلية لقرب العهد بها . وقد تركز على ثلاث محاور فنية ، خطط لها معاوية : المديح والفخر والهجاء المقذع ، وظل معاوية يغذيه ، حتى كاد يصرف الناس كلياً عن القرآن الكريم ، وعن الصحيح من أحاديث رسول الله (ص) ضمن خطة رهيبة واكبت فيما بعد طوفان الشعر ، وبدأت خطوطها تتوضح بعيد وفاة رسول الله (ص) ، كان من أخطر البدع التي جاءت فيها مفهوم الإجتهاد والقياس ومفهوم الصحبة لرسول الله (ص) ، فاعتبروا الأخطاء الفادحة الفاحشة إجتهاداً ، ومن يأتي بها مأجور عند الله سبحانه ، حتى رغم مخالفتها الصريحة للكتاب والسنة ، واعتبروا حتى رسول الله (ص)

مجتهداً في جملة المجتهدين ، يصيب ويخطيء ، وإننا إذ نستن بسنته قد نكون على خطأ ، رغم صريح الكتاب الكريم فيه :
{ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى . سورة النجم الآيات 3 ـ 4 } .

وكذلك وضعوا حديثاً عن لسانه (ص) ليبرروا فيه أخطاء بل وجرائم بعض الصحابة المنحرفين والحديث المزعوم هو : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، فكان ممكناً على ذلك ، الإقتداء بالمغيرة بن شعبة وهو صحابي زنى وشهد عليه أربعة ثقاة ورغم كل ذلك لم يوضع عليه الحد (فكان ذلك اجتهاداً مع النص) ، وبالأمثلة عن أشباهه كثيرة ، هذا فضلاً عن أنهم قربوا أمثال المغيرة ، بينما استبعدوا الذين نص الكتاب على وجوب طاعتهم ، كما استبعدوا الكثير ممن أجمعت الأمة على فضلهم وصدقهم وجهادهم في سبيل الله . ولذلك كله تفاصيل تطول ، نكتفي منها بهذا الإلماح لضرورة إيضاح المطلب الذي نحن بصدده .

ولولا فضل الله على هذه الأمة ، وحججه في أرضه ، ودعائم دينه من أهل بيت النبوة ومن أوليائه في كل عصر ، لكان عذاب الإستئصال .

هكذا ، وبعد معاوية ، درج الخلفاء على خطته . أما بخصوص الشعر ، فبعد أن كان ينشد إنشاداً ، صار يغنّى وتعاقر معه الخمرة عهد يزيد بن معاوية . ثم بلغ الأمر بالبلاطات الأموية ، أن جعلته مادة المجالس الأولى التي لا يتقدم عليها شيء . بخلاف معاوية الذي كان يقدّم على الشعر ، الأحاديث الموضوعة والأخبار المختلقة ويعممها على الناس ضمن هالة قدسية ، كان المجتمع ما زال مأخوذاً بها لقربه من عهد النبوة الميمونة .

وإذا كانت لعنة الأبد على بني أمية مذبحة الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته في كربلاء ، فأسقطت الأقنعة والبراقع المزيفة واستيقظت الأمة على هذه الفاجعة المروّعة التي زلزلتها زلزالاً . فكانت ثورة التوابين ، ثم ثورة زيد بن علي بن الحسين (ع) ، وهكذا نشطت عملية فرز في الأمة بين موالين للحكومات التي تحولت إلى ملكية وراثية استبدادية ، اتخذت القمع وسفك الدماء على الشبهة وسيلة لتثبيت الحكم بدلاً من شريعة الله السمحاء ، وبين معارضين تحلقوا في البداية ، حول راية الحق معروفة عند أئمة أهل بيت النبوة (ع) ، حيث الغاية القصوى لهذه المعارضة ، هي نصرة دين الله عز وجل ، إحقاقاً للحق ، وإرساءً للعدل ، وتوحيداً للأمة على أساس تعميق فكر التوحيد ، وتثقيف الجماهير بمقتضيات أصول هذا الدين القويم وفروعه .

وهكذا فإن لله أنصاره عزّ شأنه ، وللحق أهله ، ولا يخلي عزّ وجل الأرض منهم وهو القائل تبارك وتعالى :

{ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوٰهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَـٰفِرُونَ . سورة الصف الآية 8 } .

فمن من الشعراء انتصر وما زال لله سبحانه ، ولدينه ، ولحملة راية الحق في كل زمان ومكان ؟! ومن هم شعراء الضلالة الذين كانوا وما زالوا مصـاديق لقولـه عز شأنه :

{ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ . سورة الشعراء الآيات 224 - 225 - 226 } .

الذين يمقتهم الله عز وجل ويحشرهم مع شياطينهم ؟! إلاّ أنه تبارك وتعالى استثنى المستنيرين منهم بقوله :

{ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَذكَرُواْ اللهَ كَثِيراً وَانتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ . سورة الشعراء الآية 227 } .

هم الشعراء الذين أبرز ميزاتهم الإيمان بالله الكبير المتعال ، وبأصول دينه وفروعه ، والصلاح قولاً وعملاً ، والإكثار من ذكر الله في شعرهم خاصة وفي حياتهم عامة ، ثم الإنتصار له عزّ شأنه ولأوليائه ولدينه ثناءً على الحق وأهله ، وهتكاً للباطل وأهله . هؤلاء الشعراء هداهم الله إلى الطيّب من القول ، وشرّفهم بين مهديين ومهتدين وجنّبهم تبعية الغواة ، والهيمان في كل واد وجنبهم قول الزور .

ومع كل ذلك ، ما زال شعراء الضلالة ، وهم الأكثرية الساحقة ، بين قريض (شعر فصيح) وشعر عامي ، ماضين في الغواية والإغواء ، وصلب روحية المجتمع المستلب بالموسيقى المخدرة وأنغام الجحيم . ومعظم الناس حولهم في هذه الأودية ، كالقطعان السائبة ، منهم من يصفق إعجاباً ، ومنهم من يترنح طرباً ، وأبدع بدعة فيهم ، أنك إذا أقنعتهم بضلال المحتوى وفسوقه ، يتجلون ويتأنقون بالكلام ، ويقولون بإعجاب المفتون : وإنما هذا شعر ! .. وأعذب الشعر أكذبه ! .. نعم ، هم يقرّون بالكذب الذي يبلغ درجة الفحشاء والوقاحة والخسة وإنما يفصلون الحقيقة البشعة ، ويتعبدون بثوبها الجميل النجس ، أليس هذا مما يبعث على الأسى والأسف والحزن المرير .

ترى ، من أين أتوا بهذه المقاييس ، بعدما أطلق الله عزّ وجل تلك القاعدة القارعة ، واضحة جلية وبدون أدنى لبس .

الله الجمال :

قد يقول قائل ، وماذا ترك الله سبحانه للشعر والشاعر ، وماذا تركت أنت أيها الكاتب الرجعي المتزمت ، الفاقد الشاعرية ؟ أقول ، مهلاً ، وهوّن عليك ، ودعك الآن يا أخي من الأودية ، وصعّد معي إلى رأس جبل عالٍ ، والآن ، تأمل .. في كل اتجاه .. فبشرفك الشاعري ، أما ترى ملكوت الله تبارك وتعالى ، أوسع وأرحب من الأودية الآنفة الذكر ، فضلاً عن طهر الملكوت ونظافته ؟ املتفت أنت إلى هذا الكون كم هو نظيف في أصل الخلقة ، ورائحته كم هي طيبة ، أوليست وصفة ممتازة لحل عقد الأدمغة ؟ أما تحس صدرك أوسع وتنفسك كحركة جناحي نسر في مطر محبب خفيف ؟ .

ادع الآن كما دعا الإمام زين العابدين عليه السلام : " اللهم إني أسألك من جمالك بأجمله ، وكل جمالك جميل ، اللهم إني أسألك بجمالك كلّه ... " ثم اطلب حاجتك .. واصدقني القول : أما تحس في فمك بقطرة نور ندّية ؟ وفي قلبك بقطرات ؟ وفي أذنيك بموسيقى السماء ؟ ثم هذه الألوان النابضة بالحياة على رحابة ما بين هنالك ، وهناك ، وهنا ، وفي عينيك ، أهي كذلك في لوحات الرسّامين ؟! ...

بين داود النبي ـ باعتبار المدونات ـ والإمام زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، وهما قمتا الشعر الإلـٰهي الذي كتب بالريشة النورانية ـ نظماً ونثراً ـ عرفت الأرض شعراً إلـٰهياً كثيراً وشعراء ربانيين ، أبهجوا

السمع والعين ، وأنبتوا للقلوب المُحِبة لله ، أجنحة مثلها أجنحة النجوم اللازوردية .

كذلك نتاج الذين أعاروا لله جماجمهم ليستوفوها مباركة يوم القيامة ، مثبتين جميعاً ، أن الشاعرية الحقيقية الأصيلة ، إنما هي في شعر القمم المتطلعة أبداً إلى خالقها ، وليس في شعر أودية الأبالسة والزحافات .

وإذا كانت رؤية أنصار مدرسة " الفن للفن " لم تتوصل إلى هذا ، فلأنها رؤية مكفوفين ، رؤية بعين خفاش ، وجناح دوري ، وحوصلة دجاجة .

أصحاب البصائر ، والأجنحة القوية ، والأرواح الصافية، تتكون عندهم بفعل عقيدة التوحيد ، وفاعلية الحب الإلـٰهي ، شخصيات هي في المعادن بمنزلة الذهب والفضة ، كلما انصهرت ، كلما زادت نقاءً وصلابة ، فإن شيبت بما دونها ، نزلت قيمتها ، وهكذا حتى الإبتذال . ومن هنا نفهم كيف يكون معنى الإخلاص لله عزّ وجل ، إخلاص المعدن الإنساني المتميز ، إخلاص جوهر النفس لله ، ولدين الله ، وبدين الله . هذا الكلام ليس للملاحدة ، ولا للنرجسيين المغرورين ، ولا للامعات النكرات ، وإنما هو للمؤمنين الذين يقولون ويرددون : **لا إلـه إلاّ الله لا نعبد إلاّ إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .** وكذلك يقرأون ويرتلون قوله عزّ شأنه :

{ وَمَآ أُمِرُواْ إِلاّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الّدينَ حُنَفَآءَ .. سورة البينة الآية 5 } .

تعذر الببغاوات .. وأما الإنسان الذي خلقه ربه جل شأنه في أحسن تقويم ، أما يستحي أن يردد ولا يطبّق ، ويقول ولا يفعل ، وكتاب الله المجيد يعلن :

{ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ . سورة الصف الآية 3 } .

فهرس الكتاب

الحكمة الإسلامية ـ بحوث من مقتضيات العصر ـ 3 - 8

1) **الفصل الأول ـ التأويل ـ** 9

- معنى التأويل وكيفيته 11
- تأويل الرؤى في سورة يوسف (ع) 11 - 15
- تأويل الوقائع الأربع مع موسى وصاحبه (ع) 15 - 19
- خطورة الحدث النافر إذا بقي بدون تأويل 20 - 22
- معنى تأويل القرآن 22 - 26
- وأذن الله بتأويل الأحرف النورانية 27 - 37

من هم الراسخون في العلم

- لزوم أن يؤول القرآن , وشرائط التأويل 39 - 41
- لماذا سميت الأحرف النورانية بـ (المثاني) 41 - 49

المحكم والمتشابه

- معنى (المتشابه) في القرآن الكريم 50 - 82
- ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر 83
- أمّ الكتــاب 84 - 85
- من هم الراسخون في العلم 86 - 88
- الفصل بين المحكم والمتشابه 89 - 103
- لماذا نورانية 104 - 108
- لماذا قراءة القرآن 109 - 131
- وسوسات التفس الأمارة 132 - 135

2) **الفصل الثاني ـ الحمل الإصطناعي ـ** 137 -
الحمل الإصطناعي بين الحضارة والشريعة 139 - 143
- تعليل التشريع وشرف الأبّوة والأمومة 144 - 165

3) **الفصل الثالث ـ الشذوذ الجنسي ـ** 167
- الشذوذ الجنسي في الفرضيات 169 - 175
- الشذوذ الجنسي في المفهوم الديني 176 - 196

4) **الفصل الرابع ـ نحن وحضارة العام ألفين ..** 197
- الجاهلية الأولى 199 - 200
- الجاهلية الثانية والديمقراطية 200
- الحضارات بين الجاهلية والإسلام 201 - 202
- مؤشرات لنهاية الحضارة الراهنة 203 - 207
- وجهان للحضارة : جميل وقبيح 207 - 214

الفصل الخامس ـ الحب الإباحي ـ 215
- الحب الإباحي 217 - 219
- إذا لم تَسْتَحِ 219 - 222
- الله قال في الشعراء 222 - 226
- الله الجمال 227 - 228